13
رهبان وبدو رحل

قاعة الصلاة الرئيسية من دير لابرانغ مليئة بالرهبان، وهم يجلسون في صفوف، بعضهم يتمايلون بصمت، وبعضهم يتحادثون، وبعضهم ينشدون في شبه الظلام. لابد أن هناك أربع مئة أو خمس مئة منهم، ورؤوسهم الحليقة تهتز صاعدة ونازلة بين الأعمدة المدهونة. نصفهم يواجه جهة، في ما يقارب عشرة صفوف منهم في المجمل، ثم، في منتصف القاعة، هناك خط غير مرئي يقسمهم، وتجلس الصفوف العشرة الأخرى في مواجهة الصفوف الأولى. يجلسون متربعين على وسائد، بعضهم يلبسون ببساطة أثوابهم الخمرية، وآخرون في عباءات أوسع، أو أسمك ضد البرودة المدهشة في الصباح الصيفي.

قاعة الصلاة الأصلية التي يبلغ عمرها ثلاث مئة عام كانت هي أهم ملمح مركزي للدير ولكن تلك القاعة احترقت على نحو مأساوي في نيران ضخمة في العام 1985، نجمت عن خطأ كهربائي. وأعيد بناء القاعة في الحال بطريقة تبدو منسجمة انسجاماً جيداً مع المباني القديمة المحيطة. لا توجد أي نوافذ، وهكذا فالداخل مظلم جداً. ويضاء فقط بالضوء الذي ينبث إلى الداخل من خلال عدة مداخل للقاعة، وبالتوهج الأوهى خفوتاً لعشرات من شموع الزبدة التي تصطف خطوطاً على الجدران. إنه مكان يبعث على التأثير، وله سقف عال، وتنتصب صفوف أعمدته المدهونة دهاناً متألقاً مثل جذوع شجر ذات رائحة قوية عفنة في غابة صنوبرية. وشموع الزبدة، المصنوعة من حليب حيوان الياك، تطلق الرائحة الزنخة قليلاً التي تتغلغل في كل شيء في مناطق التيبيت.

كانت مجموعة صغيرة من الأجانب قد تجمعت عند واحد من الأبواب الرئيسية، وهم يشعرون مثل من يختلس النظر، ويحدقون في ظلام جزء من عالم ضائع. وفي الحال، جاء إلى المدخل عدد قليل من صغار الرهبان، الذين لا يتجاوز أي واحد منهم

أكثر من عشر سنوات،جاؤوا إلى المدخل لينضموا إلينا. وتسجد امرأة تيبيتية عجوز ولها ضفيرتان شائبتان تحت قبعة من نوع ستيتسون في المكان الموجود بين المشاهدين والرهبان في الداخل. ويخطو عدد من السياح الصينيين إلى الأمام ويفعلون الشيء نفسه، وتبدو ملابسهم المعقولة غريبة بشكل غير منسجم مع أفعالهم. ويأتي سياح هان آخرون ويرمون نقوداً على الأرض بالقرب من مدخل القاعة. ويشير كاهن ضخم بلباس رأس مخيف، يتدلى نازلاً على ظهره وهو مجدول بالمعدن والقماش، يشير إلى الكهنة الأولاد الموجودين أمامنا بالتراجع. إنه المسؤول في الدير والمدرب على السلوك الصحيح والمهارات.

وبمحض الصدفة لا غير، وصلت إلى شياهو في أثناء وقت مهم في عام الدير. إنه وقت الامتحان، حين يحضر مئات الرهبان الشباب امتحاناتهم الفلسفية. هذا هو الوقت الذي يجب فيه على الرهبان أن يثبتوا بالبرهان معرفتهم لتعاليم البوذية في منتدى مفتوح، يختبرهم فيه رهبان آخرون. إنه تقليد يعود بتاريخه إلى قرون سابقة، على الرغم من أنه كان قد أوقف طبعاً تحت حكم ماو وأعيد بدؤه في الأعوام الحديثة فقط.

وتقول امرأة ألمانية موشومة، تقف إلى جانبي، وكأنها تلهث. «إنه روحاني للغاية. إنه رائع جداً أن يكون لديهم هذا ليؤمنوا به. لماذا لا نملك نحن في الغرب أي شيء مثل هذا؟»

ويبدأ «الامتحان»، على الرغم من أنه يأخذ بشكل أكبر شكل الحوار. راهبان شابان، ربما في مطالع عشرينياتهما من العمر، واقفان في مركز القاعة، حيث يواجه الصفان الأماميان على الجانبين أحدهما الآخر. وفجأة يقفز واقفاً راهب أكبر سناً على بعد عدة صفوف في الخلف، ويصيح ليجتذب انتباه واحد من الطالبين ثم ألقى عليه سؤالاً بصوت عال خشن باللغة التيبيتية، مصفقاً بيديه بجرأة وحركات سريعة وهو يلقي السؤال. والكهان المشاهدون، في بحر من اللون الأحمر، يصيحون ويستهجنون بصوت كنعيب البوم، وكأنهم يضحكون من السؤال أو الجواب أو من كليهما، في الوقت الذي يرد فيه أول الممتحنين. ويستمر توجيه الأسئلة لبعض الوقت،

والطالبان يمتحنان بالتناوب من الرهبان الموجودين على الجانبين من الممشى الذي يقف الطالبان فيه.

والصينيون الهان الوحيدون هم الموجودون عند الباب مع الأجانب، وجميعنا خارجيون غرباء بالنسبة إلى هذا المنظر الذي ينتمي إلى العالم الآخر. دليلنا اختفى. وأسأل بعض الرهبان الشباب الموجودين أمامنا إن كانوا يتكلمون الصينية، لكي يستطيعوا أن يشرحوا المنظر لي. «هل تتحدث بكلمات الهان؟»

وجميعهم حدقوا بي تماماً في التفاتتهم، عاجزين، أو ربما غير راغبين، في الجواب.

ويستمر الحوار بلا توقف، والطالبان يتجولان صعوداً ونزولاً في الصفوف، يتلقيان الأسئلة من أي كاهن يريد أن يقف، مع صيحات السخرية والضحك مستمرة من الرهبان الآخرين في جوقة حين تطرح الأسئلة. بعد نصف ساعة، يتفرق السياح الأجانب والصينيون. فليس هناك إلا مقدار محدد فقط من المسرح الذي تستطيع أن تستوعبه في لغة لا تفهمها، مهما يكن مؤثراً وغير عادي.

قاعة الصلاة هي الموقف الأخير في جولة موجهة إلى دير لابرانغ، التي كانت قد بدأت من قبل ساعة. لقد صارت شياهو أكبر محطة سياحية لشعب هان الصيني، ومثل مكة (أو معادلها البوذي) للأجانب حملة حقائب ظهر. وهكذا فإن مجموعة متنوعة من الأستراليين الملحين، والأيرلنديين الثرثارين، ونساء ألمانيات موشومات كانوا قد تجمعوا عند البوابات في ذلك الصباح ليقابلهم راهب تيبيتي رزين له عظمتا خدين مرتفعتان وابتسامة حذرة، كان يفترض به أن يكون هو الدليل.

ويجول حولنا أيضاً زوجان من السياح الصينيين، يبدوان غربيين بقدر ما نبدو نحن، وفي أثناء انتظارنا، سألتهما لماذا قدما إلى هنا.

وتجيب المرأة، «أنا مهتمة بشعوب الأقليات. فلديهم حياة مختلفة كثيراً».

وأسألها «هل تفهمينهم؟»

وتعترف قائلة: «لا، لا مطلقاً، إنها غريبة علينا».

دير لابرانغ نفسه مجمع أبنية ممتد يشغل قسماً كبيراً من البلدة. وكان قد بني في العام 1709، وهو واحد من ستة أديرة كبيرة لمدرسة غيليوغبا من البوذية التيبيتية، التي تعرف أحياناً باسم مدرسة هات الصفراء. أربعة أديرة في التيبت الأصلية، وواحد آخر (قرب مكان ميلاد الدالاي لاما الحالي تماماً) وهو إلى الشمال الغربي من هنا، في مقاطعة تشينغ هاي. في ذروة الدير، قبل انتصار الحزب الشيوعي في العام 1949، كان هناك أربعة آلاف راهب في لابرانغ. وذلك العدد انخفض انخفاضاً حاداً في أثناء الثورة الثقافية من العام 1966 إلى 1976، حين شجع ماو على شن الهجمات على كل الأديان. والآن، مع ذلك، ترتفع الأعداد ثانية، وهناك ما يقارب ألفاً ومئتي راهب يدرسون هنا.

توفر الجولة مقدمة أساسية غير ضارة بشكل غير متحيز، ولا تلمس أي شيء حساس بقدر ما يتصل الأمر بعلاقة التيبيت مع الصين. والزوار الأجانب يسألون أسئلة مؤدبة حول فن العمارة في الوقت الذي يسبرون بلطف ليستكشفوا إلى أي مدى سيكون الدليل صريحاً في موضوع الدالاي لاما. وفي الحال تمت إجابتنا عن السؤال. نصل إحدى القاعات، وفيها على المذبح الذي يلي بوذا، تعرض بوضوح صورة الزعيم التيبيتي المنفي.

«هل ذلك مسموح؟» أسأل الدليل بهدوء باللغة الإنجليزية، وأنا أنظر حول كتفي لأتأكد من عدم وجود أي مسؤول ينصت لما نقول.

ويبتسم بحرج ويستدير بعيداً، غير راغب في الإجابة. وإلى جانبه، مع ذلك، راهب أشد جسارة يوضح خداه اللذان أحرقتهما الريح وجهه القوي. كان ينصت عند أطراف جماعتنا، ويميل نحوي ويقول، بلغة صينية مكسرة، إن الرهبان أحياناً يضعون الصورة هنا «لأن الدالاي لاما في قلوبنا».

ويقول الراهب: «أحياناً تأتي الشرطة وتأخذ الصور وتبعدها. وفي إحدى المرات هشموها أيضاً. ولكن أحداً ما يعيد وضعها دائماً».

كان هناك هجوم لا يكاد يصدق على الثقافة التيبيتية تحت حكم الرئيس ماو، وجرى تحطيم الكثير جداً إلى درجة أنني جئت هنا وأنا أتوقع أن أجد خبرة ضئيلة. ولكن المؤثر بشأن الدير هو المدى الذي يبدو فيه تيبيتياً. طبعاً، مثلما هو الحال في كل مكان في الصين، هناك الكثير غير المرئي. هناك جواسيس في كل الأديرة التيبيتية، ويجب على جميع الرهبان أن يكونوا حريصين على ما يقولون. وأنا متأكد أن دعاة النقاء سيقولون إنها، مقارنة مثلاً، بالعشرينيات من 1920 أو بالعشرينيات من 1720، لم تبق ثقافة أصيلة. ولكن الامتحان والعبادة والشعائر اليومية كما هو واضح لم يجر وضعها فقط من أجل السياح.

بعد النصر الشيوعي، رسمت بكين خطاً على الخريطة وحددت جزءاً كبيراً من المناطق التيبيتية التقليدية بوصفها منطقة الحكم الذاتي التيبيتية. وهذه المنطقة هي المعروفة أحياناً باسم «التيبت السياسية». ولكن مساحات كبيرة فيها سكان تيبيتيون لم تُضَم إلى هذا التحديد السياسي، والكثيرون من التيبيتيين مازالوا يعيشون في مقاطعات تشينغ هاي، وسيشيوان، وغانسو، التي تحيط بمنطقة الحكم الذاتي التيبيتية. والحريات الدينية في هذه الأجزاء، التي تعرف أحياناً باسم «التيبت الإثنوغرافية»، المتصلة بالسلالة العرقية والثقافية، هي أحياناً حريات أكبر مما هي في التيبت السياسية لأن التيبيتيين الذين يعيشون في التيبت الإثنوغرافية لا ينظر إليهم من بكين بأن من المحتمل أن يندفعوا من أجل أي نوع من الاستقلال السياسي. التيبيتيون أنفسهم، كما يتخيل المرء، لا يعترفون بمثل هذه الحدود المصطنعة، والبوذية التي مازالت كما يبدو تنساب في عروقهم تنساب أيضاً بلا جهد عبر خطوط مرسومة على خريطة.

المسألة التيبيتية مسألة معقدة عويصة وصارت عاطفية جداً في الغرب. لقد كان التيبيتيون قد دعوا باسم «أطفال الفقمة» في المجتمع الدولي، مع صورة الدلاي لاما التي تستهوي الناس ورسالته القوية من اللاعنف تكسب له ولمواطنيه موجات كبيرة من التعاطف. كثيرون في الغرب يؤمنون بمعظم ما يقول التيبيتيون، وهو أن الصين احتلت التيبت لأول مرة بعد النصر الشيوعي فقط في العام 1949. ولكنك كي تفهم الصورة الكاملة يجب أن ترجع إلى الوراء طريقاً طويلاً قبل ذلك.

تقول الحكومة الصينية إنه كانت هناك «علاقات أخوية» مع التيبت منذ القرن السابع وأن التيبت كانت في الواقع جزءاً من الصين منذ أسرة يوان من القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. بالتأكيد كان هناك اتصالات تعود إلى الوراء في القرن السابع، وكانت هناك اتصالات بين القادة التيبيتيين والمنغول (حين حكم المنغول الصين) في القرن الثالث عشر. ويتوقف الأمر، طبعاً، على الكيفية التي تحدد بها الاتصالات، ولكن يبدو لي أنها لا تكاد، إلا بشكل قليل، تضيف إلى كون التيبت «جزءاً من الصين». وأول دمج حقيقي فعال للمزاعم الصينية في التيبيت لم تأت قبل العام 1720، حين أمر الإمبراطور كانغشي في بكين قواته الإمبراطورية بدخول لاسا. من تلك النقطة فصاعداً، رابطت قوات ورابط مسؤولون إمبراطوريون في العاصمة التيبيتية، بدرجات مختلفة من الانغماس في الشؤون التيبيتية. وكان قد سمح للتيبيتيين، تقريباً، بأن يستمروا بأسلوب حياتهم من دون إزعاج. وقد وصل الإمبراطور إلى أن يقول إن التيبيت كانت «جزءاً من العائلة الإمبراطورية». والمقابل لذلك بالنسبة إلى التيبيتيين هو أن الجنود الإمبراطوريين ساعدوا على إبقاء الأعداء من أمثال النيباليين مرتدعين عبر الحدود.

واستمرت هذه العلاقة عبر القرن التاسع عشر، حين ضعف ما تبقى من سلطة لأسرة شينغ على التيبت، وزاد ضعفها أكثر بالتمردات الداخلية أيضاً، وبوصول شعب المحيط، الذي تسبب في نشوء مشكلات على طول خط الساحل الصيني. لقد فقدت التيبيت فرصتها في الاستقلال بعد أن تمزقت الصين في العام 1912، وكان ذلك في وجه من الوجوه لأن البريطانيين الذين تصرفوا بخسة في الهند ورفضوا أن يتبنوا قضية التيبت، ومن وجه آخر لأن الأديرة البوذية، وقد خافت من أن التحديث كان يعني الإلحاد والعلمانية، أعاقت الجهود التي بذلت في العشرينييات من 1920 لإدخال الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. وهكذا فحين كان اليابانيون قد هزموا في النهاية في العام 1945، وحد الرئيس ماو بلداً ممزقاً وأعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية في شهر تشرين أول / أكتوبر 1949، ولم تكن التيبيت في موقف قوي لمقاومة الطلبات من بكين بأن على التيبيت أن «ترجع» إلى الحظيرة.

ومع عدم وجود أي وسائل للدفاع عن أنفسهم، أجبر القادة التيبيتيون على عقد صفقة اتفاقية مع بكين وأن يقبلوا رسمياً السيادة الصينية لأول مرة. وكان الرئيس ماو قد حاول بالفعل أن يعطيهم بعض الحيز، ولا يفرض نفس الإصلاحات الشيوعية عليهم في الخمسينيات من 1950 التي طبقها في أماكن أخرى في الصين. ولكن ذلك لم يكن ذا قيمة. فالطرائق الشيوعية والبوذية كانت متعارضة تماماً، واندلعت انتفاضة ناضجة كاملة ضد حكم الصينيين في العام 1959. وقمعت بلا رحمة على أيدي الصينيين وانتهت بهروب الدالاي لاما إلى الهند. ولم يرجع إلى التيبيت منذ ذلك الحين.

ودعاية الحرب التي كانت قد بدأت آنئذٍ مستمرة إلى هذا اليوم، وفيها تسلط بكين ضوءاً قوياً على الطبيعة القاسية والرجعية للاهوتية القديمة التي تم «تحرير» التيبيتيين منها، وتقوم حكومة التيبيت في المنفى بالتعبير عن اعتراضاتها بأقسى لغة ممكنة ضد تدمير الصين للتيبيت وإساءاتها لحقوق الإنسان ضد التيبيتيين.

بين عام 1959 وعام 1976 أعيدت هيكلة المجتمع التيبيتي وفق الخطوط الشيوعية. فالبدو الرحل نظموا في بلدات (كوميونات). والثقافة والدين التيبيتيان هجوماً بوحشية، وتم تقريباً تدمير كل الأديرة تدميراً كاملاً. وانتقل المسؤولون الصينيون الهان (والمزيد من القوات الصينية) إلى التيبت، للتأكد من أنها لن تثور ثانية وللإسهام في تطويرها ودمجها. وفي العام 1949 كان هناك مجرد مئات من الصينيين الهان في ما هو الآن منطقة الحكم الذاتي التيبيتية، من بين سكان يصل عددهم إلى ما يقارب المليون نسمة. في العام 2005، ووفقاً للأرقام الرسمية، يوجد ما يقارب 100.000 نسمة أو 7 بالمائة من السكان. وهذا الرقم منخفض جداً إلى حد بعيد، وخصوصاً منذ تدفق المهاجرين الناجم عن إكمال السكة الحديدية التيبيتية في العام 2006. فأنت تستطيع الآن أن تسافر بالقطار مباشرة من بكين أو من شنغهاي إلى عاصمة التيبت، لاسا. ويخشى التيبيتيون أن يتصاعد عدد الصينيين الهان ببطء إلى أن يكون هناك عدد من الهان يساوي عدد التيبيتيين في المنطقة.

حين مات ماو في العام 1976، جرى تخفيف بعض السياسات الشيوعية العسكرية الشديدة، ولكن المظاهرات المناوئة للصينيين اندلعت في لاسا أواخر الثمانينيات من 1980، ومرة أخرى سحقت بلا رحمة.

كان سحق تلك المظاهرات مؤثراً. وهولم يقنع التيبيتيين بأن يحبوا الصينيين، ولكنه أقنع كثيرين من التيبيتيين العاديين بأن المعارضة كانت في الحقيقة عديمة الجدوى، تماماً مثلما أقنع سحق مظاهرات تيانانمين في 4 حزيران/ يونيو، 1989، الصينيين الهان باللاجدوى من أي قتال في سبيل الإصلاح الديمقراطي. وهذا الإدراك تطابق مع شن برنامج تطور اقتصادي ضخم في التيبت في التسعينيات من 1990. وكان التفكير الرسمي الصيني هو: إذا كنت لا تستطيع أن تكسب أفراد الشعب من طريق قلوبهم وعقولهم، فاكسبهم عندئذٍ من طريق معدهم. ومع الاستثمار جاء عشرات الآلاف من المهاجرين الصينيين الهان. وكان ذلك مثل بناء الغرب الأمريكي، يجلب معه الكثير من الوظائف في الإنشاءات، بله التجارة والدعارة.

والاستثمار في التيبيت ليس مجرد محاولة تهكمية لشراء التيبيتيين في مقابله وجعلهم ينسون أي طموحات للاستقلال. مازالت هناك جرعة كبيرة من السياسة الأبوية الصينية حسب الطراز القديم، التي تريد أن تحسن نصيب أفقر الناس. وبالتأكيد فإن التيبيت الريفية فقيرة على نحو يائس. (والغربيون الذين يتصورون التيبيت بوصفها نوعاً من الجنة في الهمالايا، لم يروا الفقر والصعوبة التي تشكل حياة معظم التيبيتيين.) ولكن ليس هناك أدنى شك في أن لكرم بكين الاقتصادي أيضاً أثراً جانبياً سياسياً. حين زرت لاسا قبل سنوات قليلة، كنت قد عجبت لأنني أجد أعداداً كبيرة من شباب التيبيت دون العشرين الذين أرادوا التوجه شرقاً إلى شنغهاي للحصول على عمل أفضل والذين لم يمتلكوا إلا اهتماماً قليلاً بالسياسات أو بالدين. وقد صار التقدم بالنسبة إليهم كما بدا، على السطح على الأقل، مهماً مثل أهمية الهوية.

وكان شاب ثمل في السادسة عشرة من عمره قد قال لي في نادٍ ليلي في لاسا وهو يجرع جرعة كبيرة من زجاجة جعة: «جدتي تحب الدالاي لاما، أما أنا فلا أعرف الكثير عنه».

وتبقى نقطة واحدة أخيرة لشرحها عن دمج التيبيت في الصين. وهي أن من المهم أن نتذكر بضعة فصول قليلة من تاريخنا الخاص في أمريكا الشمالية، وفي أستراليا، وفي أماكن أخرى، وذلك على الرغم من أن هذا ليس عذراً عن الطريقة الوحشية المرعبة التي عامل بها الحزب الشيوعي التيبيت منذ العام 1959. فالتقديرات المحافظة تقول إن أكثر من مليوني إنسان من المواطنين الأصليين قتلوا في أثناء استعمار أمريكا الشمالية. وفي أستراليا خُفِّض عدد السكان الأصليين بالمرض، وفقدان الأرض، وبالقتل المباشر بنسبة 90 بالمائة بين أعوام 1788 و 1900. والتاريخ الأمريكي والأسترالي مليء بالأمثلة على قيام الرجال البيض بقتل الشعوب الأصلية لمجرد قتلهم فقط، من أجل الرياضة فقط. ودعونا لا نبدأ أيضاً بذكر تجارة الرقيق والانقضاض الكامل للاستعمار الأبيض في أماكن أخرى. الفظاعات الصينية في التيبيت في أثناء الستينيات من 1960 والسبعينيات من 1970، وحتى هذا اليوم كانت مروعة إلى حد بالغ الشدة، ولكن فظاعات الصين لم تصل بعد إلى أي مكان قرب تلك المستويات من القتل. وهذا لا يعذرهم بأي شكل من الأشكال. وكل ما أريد أن أقوله هو أن الرجل الأبيض ينطق بلسان منشعب في هذه القضايا، ولن تسمع قط شخصاً صينياً من الهان يقول: «التيبيتي الجيد هو التيبيتي الميت*».

في ذلك الأصيل هاتفت شياو لين، المدرس التيبيتي الذي كنت قد قابلته في حافلة الركاب المسافرة إلى شياهو، ورتبنا أن نلتقي في اليوم التالي. وبعدئذٍ خصصت ذلك الأصيل لمجرد الاسترخاء ولاستكشاف البلدة. وأراقب الحجاج التيبيتين، وهم يلبسون ثيابهم الملونة المزينة بالفرو، وهم يديرون بلطف مئات دواليب العبادة التي تحيط بدير لابرانغ وكأنهم ربما يحاولون أن يديروا الزمن إلى الوراء. أنا أراقب الرهبان التيبيتين في أثوابهم في مقهى إنترنت، وهم ينظرون إلى أشياء كثيرة ويتصفحون الشبكة الدولية للمعلومات ويلعبون على الخط المباشر ألعاب الفيديو. وآخذ دراجة ريكشو صغيرة إلى مراعي الأراضي المعشوشبة الجميلة على بعد أميال قليلة فوق شياهو وأدور متجولاً فقط، أستنشق هواء الجبل النقي. هناك القليل من

* هذا القول بدأ عن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وقيل عن السود، وعن اليابانيين. وقيل عن الفلسطينيين في «إسرائيل» ومن المؤسف أنه انتقل مؤخراً إلى لسان الساسة في بلد عربي (المترجم).

obeikandi.com

الخيام التيبيتية من نوع المتحف المتخصص بموضوع واحد للسياح الصينيين ليقضوا الليلة، وأنت تشعر هنا أن المكان كله يمكن أن يكون على حافة انفجار سياحي. فمعظم البدو الرحل من الأراضي المعشوشبة يجري توطينهم الآن، ويجري تغيير طريقة الحياة القديمة. وبعد قليل، قد لا يكون هناك أي بدو رحل قط.

في تلك الليلة تناولت العشاء في شرفة قمة سطح مشرف على لابرانغ. وكنت أجلس إلى جانب راهب في أثوابه الخمرية الحمراء الفضفاضة ويتكلم باللغة التيبيتية في هاتفه الخليوي الجوال من نوع نوكيا طوال معظم الوجبة.

ويقول بلغة صينية ثقيلة اللهجة حين نبدأ بالحديث: «أنا من الريف في جنوب شياهو. والالتحاق بعمل راهب هو الطريقة الوحيدة في الواقع لتحصل على تعليم للعديدين من العائلات الريفية مثل عائلتي».

وبالعودة إلى فندق أوفرسيز تيبيتان هوتيل، كانت جماعات من حملة حقائب الظهر الأجانب تجلس وتشرب القهوة. وهذه أول مرة في رحلتي تصادف أن تقاطعت طريقي مع غربيين في أي أعداد منهم. والفندق ملاذ تقليدي كلاسيكي لحملة حقائب الظهر. والحواسيب المتصلة بالإنترنت موضوعة في البهو، والإسكانديناڤيون الملتحون يتسكعون إلى جانب المنضدة الأمامية، يناقشون أفضل المسارات على الطرق جنوباً إلى مقاطعة سينشوان، ويقوم موظف استقبال يتحدث الإنجليزية بعرض غرف نوم في مقابل دولارات قليلة في الليلة.

وفي اليوم التالي، أغادر شياهو وأقابل شياو لين في بلدة لينشيا الإسلامية، المكان الذي سبق أن غيرت فيه الحافلة في طريقي إلى شياهو قبل يومين. وأنا متابع للسفر إلى لانجو في ذلك الأصيل، وهكذا نذهب لتناول الغداء في بار صغير يقدم المعكرونة الطويلة إلى جانب محطة حافلات الركاب. ويبدو أنه كان يعرف أننا سنتكلم حول قضايا حساسة، ولذلك فهو يطلب غرفة خاصة، وهي غرف توفرها المطاعم كلها حتى الصغيرة منها.

نجلس ونطلب بعض المعكرونة الطويلة، وأخبر شياو لين أنني أكتب كتباً وأسأل إن كان لديه مانع من أن أوجه له بعض الأسئلة الصريحة نوعاً ما. ويبتسم ويومئ، مؤكداً أنني لن أستخدم اسمه الحقيقي، ثم أبدأ.

«أنت تيبيتي. ولكنك نشأت في النظام الصيني. وأنت الآن عائد لتُعلِّم اللغة الصينية، التي يدعوها كثيرون من التيبيتيين لغة «مضطهديكم»،إلى أبناء شعبك الخاص. ألا يجعلك ذلك غير مرتاح البتة؟»

«لا أملك أي خيار. ما هي الخيارات الأخرى المفتوحة لي؟»

ويقص علي قصته، عن ترعرعه في منطقة تيبيتية إلى حد كبير وأنه وجد نفسه دائماً على قمة صفه في المدرسة التيبيتية. وهكذا، مثله مثل كل الأطفال المتفوقين، تم تحويله إلى المدارس التي تُعلم باللغة الصينية، وفيها تابع البقاء في قمة الصف. وكان هذا يعني أنني كنت سأملك فرصة جيدة في دخول الكلية، وحصل على القبول حسب الأصول في واحدة من أفضل الجامعات في غرب الصين، واحد من خمسة طلاب في صفه من مائة طالب يجب أن يذهبوا إلى التعليم من المرحلة الثالثة. وكان أبواه، وكلاهما تيبيتي وبتعليم بسيط، أجبراه على التحدث بالصينية في البيت وذلك لكي تكون فرصه في النجاح أكبر.

ويقول بلطف «لا أحد يلومني. ليس هناك أي فرصة أخرى. والطريقة الوحيدة لتقول أنا لن أشارك بدور في هذا هو ألا تتعلم الصينية وأن ترفض كل النظام الصيني. ولكن ذلك يحكم عليك بالفقر. فأنت لن تستطيع قط الحصول على عمل وأن تحسن مستويات معيشتك إذا فعلت ذلك».

مازالت عيناه متألقتين، ومازال صوته رقيقاً، على الرغم من أن ما يعرفه بوضوح هو مأساة لشعبه.

«طبعاً يجري إضعاف ثقافتنا. وهناك الحاجة إلى تعلم الصينية وتدفق المزيد من الشعب الصيني. وذلك محزن. ولكن ثقافتنا لا يجري إضعافها إضعافاً كاملاً. هناك بعض الأمور غير قابلة للتنازل عنها. وعلى سبيل المثال، فأنا لن أتزوج قط فتاة صينية من الهان. وإيماني البوذي شيء لن أتخلى عنه قط».

«ولكن ماذا عن أسلوب الحياة؟ التيبيتيون بدو رحل».

«أولاً، ليس هناك أي شيء رومانسي حول كون المرء بدوياً رحالاً. إنها حياة خشنة. ثانياً، أعتقد أن البدو الرحل يدركون أنه لا يوجد مستقبل لحياة البدو الرحل. ذلك هو ببساطة عالم اليوم، العالم الحديث، العالم المعولم. وأنا ليست متأكداً من أننا نستطيع أن نلوم الصينيين لوماً كاملاً عن ذلك».

وحَسَوْنا حساءنا من المعكرونة الطويلة في صمت للحظة. ويبدو أن كل شيء قد صار مقلوباً. فالصينيون الهان قد أجبروا البدو الرحل التيبيتيين على الاستقرار والثبات. والآن فإن الصينيين الهان هم الذي صاروا، لأول مرة، بدواً رحلاً، منطلقين من طرقهم المستقرة القديمة.

«وماذا عن السياسات؟ ماذا عن الدالاي لاما؟ ماذا عن الاستقلال التيبيتي؟»

«لا أود أن أتحدث في السياسات. أنا أود أن أبقى محايداً في موضوع الدالاي لاما. فأنا بالتأكيد لن أساند قط الاستقلال التيبيتي».

ويتوقف. وأنا أومئ برأسي. ونحتسي حساءنا من المعكرونة الطويلة. إنها مأساة يتزايد فيها الغضب بالتدريج. فأعمال القتل، وتدمير الأديرة، وبعض العنف قد خفت. والتهديد الرئيسي للتدمير هو الآن لأسباب اقتصادية وليست سياسية. ولكن، وفي التيبيت الأصلية نفسها هناك إحساس من نوع تغيير المسننات والتركيز على التطور الاقتصادي. وعدد الناس الذين يجري اعتقالهم لأسباب جرائم سياسية (اقرأ: معارضة الحكم الصيني) قد هبط بشكل ملحوظ. ويبدو أن محط الأمل قد تغير. ويبدو أن كثيرين من الناس، وخصوصاً الشباب والحضر، قد قبلوا أن التيبت لن تكون مستقلة أبداً، وأن من الأفضل لهم أن يحصلوا على أحسن ما يمكن فقط من حالة سيئة.

في سيناريو أسوأ الحالات، سوف تضعف الثقافة التيبيتية إلى درجة أنها سوف تختفي بوصفها هوية. بعض العناصر، من مثل الدين والعرقية، قد تبقى، ولكن التيبيت سوف تتصينَّ بالتدريج، وسوف تمتصها الإمبراطورية الصينية. ومع ذلك،

فلن يتم إنجاز الاستيعاب من خلال قوة ثقافة الصين، أو بقوة المدفع الصيني، بل بقوة اليوان الصيني، العملة التي تقايض الكثيرين من السكان التيبيتيين.

وهناك سيناريو أكثر إيجابية قليلاً، وهو أن التيبيت (وربما شينكيانغ، المنطقة الإسلامية بشكل رئيسي في الشمال الغربي حيث أتوجه الآن) قد تصير مثل إسكوتلندا داخل المملكة المتحدة. فالإسكتلنديون قد احتفظوا بهويتهم، وهم لا يحبون الإنجليز قط، ولكنهم كانوا جزءاً من بلد حكمها الإنجليز لمدة طويلة جداً، وصارت الأمتان مندمجتين في العديد من النواحي، إلى درجة أن الأحزاب المؤيدة للاستقلال حتى وقت قريب جداً لم تنل إلا دعماً قليلاً. ولكن العملية استغرقت ثلاث مئة عام.

في كلتا الحالتين، لا يمكن تجنب أن التيبيت والمناطق التيبيتية الموجودة من حول أطرافها يجري تحويلها، لا بجعلها أكثر صينية فقط بل بجعلها أكثر عولمة. ومن دون شك سيكون هناك منافع اقتصادية إذا استطاع التيبيتيون، لا الصينيون الهان فقط، أن يستغلوا التحول. ولكن الخطر هو أن الثقافة التيبيتية هي من قبل الآن قد صارت نوعاً ما مثل ثقافة أمريكا المحلية. إنها تملك الإحساس بمتحف ذي موضوع واحد، وفيه يسمح بالبقاء للعناصر السطحية من الثقافة الخاصة بالسكان الأصليين، بل تشجع هذه العناصر، ولكن بالقدر الذي يناسب ثقافة الفاتحين فقط. والمحادثات التي تجري بين بكين وممثلي الدالاي لاما الذي يتقدم بالعمر، التي تهدف إلى الوصول إلى نوع ما من التسوية التي قد تستنقذ المزيد من الثقافة التيبيتية، تبدو محادثات لا تصل إلى أي نتيجة. وفي يوم ما، وربما يكون قريباً تماماً، سيموت الدالاي لاما، وسوف يشرف الصينيون على انتخاب دالاي لاما جديد، وذلك سيكون على هذا النحو.

شكرت شياو لين على كونه صريحاً إلى هذا الحد، وتبادلنا تحية الوداع عند محطة حافلة الركاب.

أنا متجه إلى العودة إلى لانجو، لأقضي يوماً مستكشفاً، وماشياً على ضفتي النهر الأصفر، قبل أن أتجه إلى الشمال الغربي إلى صحراء غوبي.

obeikandl.com

في أثناء انتظاري لحافلة الركاب، ألاحظ أن مجموعة من سائقي الحافلات يجلسون يتناولون طعام غدائهم. كلهم كانوا مسلمين هوي، وهم يجلسون، ويضحكون، ويلقون النكات، ويسخر أحدهم من الآخر بمزاح لطيف، ثم مني حين أبدأ بالتحادث معهم. وحين تصل المحادثة أيضاً، كما لابد من ذلك، إلى غزو الولايات المتحدة والمملكة المتحدة للعراق وللسياسات في الشرق الأوسط، فليس هناك أي عداوة نحوي شخصياً.

«رئيس وزرائكم وذلك الشرير الرئيس بوش يقومان في العراق بقتل إخوتنا». يقول ذلك لي واحد منهم، وهو رجل شاب بوجه مستدير وحذاء وسخ. ويخبرني أن عمه يعمل في بغداد، سائق شاحنة. ويشير لي أن أميل إلى الأمام وهو يسحب صورة مغطاة بمادة لامعة لأسامة بن لادن من جيبه تحت الطاولة.

وأسأله: «أتحب أسامة؟»

ويقول وهو يبتسم «نعم، نحن نحب أسامة».

obeikandl.com

14
لم يبق معتمداً على السماء

في صيف العام 1988، حين أطلت الصين بعد ماو مليئة بالأمل على مستقبل كبير، منفتح انفتاحاً واسعاً وتساءلت متعجبة عن أي نوع من البلاد كانت ستصير إليه، أذاع تلفاز الصين الوسطى على شاشاته سلسلة وثائقية بعنوان يترجم عادة إلى (مرثاة نهر). وكانت السلسلة قد نشرت في نهاية سنتي الدراسية بصفتي دارس لغة في بكين، وتسبب نشرها في إحداث اضطراب كبير بسبب تصويرها السلبي للثقافة الصينية. كانت السلسلة خليطاً من الصور الفاتنة والمقابلات التي وضعت معاً لتدعم الموضوع الرئيسي المهاجم للمعتقدات التقليدية، وكان الموضوع هو أن فكرة كون الصينيين شعب قديم رائع وامتلك ثقافة قديمة رائعة هي ادعاء كاذب زائف كبير، وأن الثقافة بأكملها كانت تحتاج إلى التغيير.

مرثاة نهر كانت فيلماً مهماً وكان إطلاقه نقطة مؤثرة جداً في تاريخ الصين الثقافي بعد ماو. ومثَّل الفيلم الكثير مما كان يدور في عقول المثقفين الشباب مباشرة قبل اندلاع مظاهرات ميدان تيانانمين في ربيع العام 1989. وهاجم الفيلم كثيرين من رموز التاريخ الصيني، ابتداءً من التنين الإمبراطوري «القاسي والعنيف» إلى الجدار العظيم، الذي «يستطيع أن يمثل فقط الدفاع الانعزالي، والمحافظ، وغير الكفء» بالنسبة إلى الصين.

وربما كان أكثر المعاني تعبيراً في السلسلة هو النقد والتقويم الذي أعطى السلسلة عنوانها، وهو الهجوم على النهر الأصفر، الذي يتدفق عبر لانجو، من خلال الأرض القلب لشمال الصين، ويخرج (حين تم استنزافه استنزافاً كاملاً نتيجة فرط الاستخدام) إلى بحر الصين الشرقي. لقد نشأت الحضارة الصينية ونمت حول النهر الأصفر، وكان النهر دائماً قد مثَّل رمز الثقافة الصينية القديمة. وهناك مثل صيني قديم يقول: «مِلءُ مغرفة من ماء النهر الأصفر سبعة أعشارها طين،» واتخذ

فيلم مرثاة النهر مادة الطمي ورواسب النهر رمزاً للوزن التقليدي الكونفوشيوسي الذي يعيق العقل الصيني. وكانت مرثاة العنوان مرثاة تتصل بمطمح، وأمل في أن تموت ثقافة الصين التقليدية التي كانت تمسك بالبلاد إلى الخلف طوال مدة طويلة، أن تموت وأن يجري إحلال ثقافة أخرى أكثر تقدمية محلها، وهي طريقة التفكير حسب الأسلوب الغربي.

وقد انتقد كتَّاب مرثاة نهر كل شيء عن «صفرة» الصين، من الإمبراطور الأصفر الأسطوري من الماضي إلى الأرض القاحلة الصفراء من هضبة الراسب الطفالي. ورمزت الصفرة لتخلف البلاد وثقافتها، وخصوصاً لثقافتها السياسية. وهذا ما قابلوه مع «الزرقة» المرموز لها بماء المحيط الصافي، المتدفق من الغرب والذي يجلب معه إلى الصين العلم الذي تدعو إليه الحاجة كثيراً ويجلب معه ديمقراطية شعب المحيط. وانتهى الفيلم بأمل في أن يتدفق النهر الأصفر في نهاية المطاف، وأن يمتزج مع المحيط الأزرق ويجري تحوله.

وحقيقة أن مرثاة النهر قد سمح بعرضها في المقام الأول، أمام مئات الملايين من الناس عبر الصين، تقول الكثير عن الحريات التي كانت قد تطورت بحلول العام 1988، لأن قادة البلاد سمحوا للمثقفين بأن يستكشفوا أفضل طريق للبلاد لتمضي قدماً. ولكن السلسلة أثارت عاصفة، لأنها، وإن لم تهاجم الحزب الشيوعي علانية، احتوت في نصها على العديد من الانتقادات غير الخفية إلى حد بعيد للتقليد الصيني الإمبراطوري، وامتدت الانتقادات ضمناً إلى النظام السياسي الحالي. واعترض على الفيلم كثيرون من المحافظين.

رسائل مرثاة نهر كانت جزءاً حاسماً من التخمر الفكري في السنوات المؤدية قدماً إلى المظاهرات في ميدان تيانانمين. ولكن حين سحقت الاحتجاجات بالقوات الحكومية، اعتقل مؤلفو مرثاة نهر أو هربوا إلى المنفى، وهم الأخيرون في صف طويل من المفكرين الصينيين الذين بحثوا روح الدوافع والعقائد والمواقف وفشلوا في مسعاهم لجعل الصين تتحول إلى بلاد ديمقراطية. (في هامش مثير للاهتمام للبحث الفكري والروحي للثمانينيات من 1980، فإن اثنين من الكتاب الرئيسيين لمرثاة نهر هربا إلى الولايات المتحدة بعد تيانانمين، وهناك صارا كلاهما مسيحيين إنجيليين).

المفكرون المستقلون لا يمتلكون سجلاً للإنجازات العظيمة في الصين. وفحص الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف، من النخبة الإصلاحية في أواخر القرن التاسع عشر كان قد قاد إلى انهيار الصين في ثورة العام 1912. وفحص الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف، من المفكرين الصينيين المستغربين من العشرينيات من 1920 قد أدى إلى ظهور الحزب الشيوعي، الذي تخلص من العديد من طرق التفكير القديمة ولكنه لم يصنع أي تقدم في تغيير النموذج السياسي القديم، وهو في نهاية الأمر سحق المثقفين الذي كانوا في البداية قد دعموه. وبعدئذٍ كان ماحصو الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف في الثمانينيات من 1980 قد اضطهِدوا هم بدورهم. وكلها تجعلك تشعر أن النهر الأصفر مازال يربح ربحاً رمزياً على الأقل.

ويبدو الأمر، في كل مرة يبدأ فيها شخص ما في التفكير خارج الصندوق سياسياً، وكأن النتيجة هي إما أن تنهار الدولة أو أن يجري سحق الناس الذين يقومون بالتفكير. لقد تم تغيير المواقف العقلية لكثير من الناس بشأن العلم والتقدم، ولكن الحكومة ستبقى على موقفها من عدم السماح للناس بالتفكير بشأن التغيير السياسي.

وهذه هي النقطة. فحقيقة أن كتّاب مرثاة نهر كانوا قد سحقوا أو أبعدوا في حزيران/ يونيو 1989، صنعت الرسالة التي حصلت عليها في شيان، على بعد ثلاث مئة ميل في الخلف إلى الشرق، بل بشكل يكاد يكون أوضح. وهي أن الصين التَّصور، الصين الإمبراطورية، الصين البناء طوال ألفي عام من التاريخ الإمبراطوري لم تكن قادرة قط، وقد لا تكون قادرة قط، على أن تسمح بالتفكير المستقل. والنظام، سواء أكان كونفوشيوسياً أو شيوعياً، هو ببساطة غير مبني للسماح به، لأن التفكير المستقل سوف يؤدي طبعاً إلى طرح أسئلة عن النظام السياسي للصين، وهل ستبقى الصين متماسكة معاً، وتساؤلات مثل تلك التساؤلات لا يمكن التسامح بها. وما قاله زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي الأمريكي لجيمي كارتر، عن الاتحاد السوفييتي ينطبق على الإمبراطورية الصينية الحديثة أيضاً: وهي أنها لا تستطيع أن تكون إمبراطورية وديمقراطية معاً.

وإذاً فماذا الآن؟ أين الأجيال الجديدة من المفكرين؟ وهل يمكن أن يكون هناك موجة جديدة من البحث الفكري في الضمير تستطيع أن تنجح فعلاً؟ إن واحداً من أشد الأشياء إثارة للانتباه عن الصين الحضرية في هذه الأيام هو اجتثاث التسييس اجتثاثاً شبه كامل من الجيل الفتي (أي شخص تحت سن الخامسة والثلاثين تقريباً). ومعظم المفكرين من الجيل الأكبر عمراً قاموا أيضاً، من أجل أن يبقوا على قيد الحياة، بوضع تفكيرهم في التغيير السياسي على الرف أيضاً لصالح الإصلاحات الاقتصادية التي وقعت في السنوات العشرين الماضية منذ ميدان تيانانمين. وربما يذهب التفكير إلى أنه مع وجود حرية اقتصادية أكبر ونمو أكبر سيأتي المزيد من الحرية الفكرية، والسياسية. ولكن هل سيكون المفكرون قادرين في أي وقت على الجهر بآرائهم من دون أن يجري سحقهم، أو من دون أن تتمزق البلاد؟ أنا لست واثقاً من أنهم سيستطيعون.

يوجد العديد من المفكرين الشجعان في الصين، بعضهم مازالوا يحاولون أن يفعلوا ما يستطيعون للترويج للإصلاح السياسي. وهي بيئة متناقضة على نحو غريب بالنسبة إليهم، فمع كل التغير الاقتصادي والاجتماعي الذي يدوي حولهم فإن الحظر كامل مع ذلك على المطبوعات من أي كتابات ولو كانت حساسة سياسياً بشكل غامض. والقلة من الناس الذين حاولوا أن ينشئوا حزباً سياسياً مستقلاً أودعوا السجن في أواخر التسعينيات من 1990، وليس هناك أي علامات توحي بأن الحزب الشيوعي سوف يخفف قبضته الخانقة على النقاش السياسي في أي وقت قريب.

وأنا أعتقد أن هذه الحقيقة المرة يجب أن تؤدي بمفكري الصين المضطهدين إلى أن يحولوا فكرهم قليلاً. العديدون يرون أنفسهم، النخبة المتعلمة، بوصفهم أهم عوامل التغيير. ولكن اسألهم كم عدد الذين يجب إدراجهم من الأسماء المائة القديمة؟ وسيقول معظمهم الشيء نفسه: «لا تستطيع أن تعطي الصوت إلى الفلاحين».

وفي اعتقادي أن هذا الموقف من المفكرين الحضريين، وهو أن الفلاحين الذين يشكلون ثلثي السكان هم جزء من المشكلة وليسوا جزءاً من الحل، هو موقف خاطئ بشكل متأصل فيهم. كان الرئيس ماو، بعد العام 1949، مخطئاً في كل شيء تماماً،

ودفع الملايين من الناس الثمن لذلك. ولكني أعتقد أن تركيزه على الفلاحين كان صحيحاً، وأن ذلك هو المكان الذي يجب أن يكون التركيز عليه اليوم كذلك، لأن ذلك هو ما سيصنع الفرق في مسألة إن كانت الصين تستطيع أن تمضي قُدماً بوصفها بلاداً موحدة ويحتمل، مجرد يحتمل، أن تطور بعض الزواجر والضوابط السياسية.

والمثقفون لا يجري منحهم أي مجال من الدولة، ولا أعتقد أن من المحتمل أن يتغير هذا الحال في المستقبل القريب. إن سياسة الاستقرار لا تستطيع أن تسمح بذلك. فلو أن نخبة المثقفين كانت قد مُنحت مجالاً لاستكشاف كيفيةٍ لتطوير الديمقراطية الأساسية المتصلة بعامة الناس، لربما كانت تبدأ بتغيير الطريقة التي تُحكم بها الصين. ولكن من دون هذا، يجب أن يكون التركيز على الفلاحين من أجل تمكين الشعب وتخويله: لا للقيام بثورة فلاحين ماوية أخرى، وإنما للتحويل التدريجي المستمر للثورة الصناعية التي أغنت أوروبة وأمريكا الشمالية، وهي التي تبدأ الآن، بتحويل الصين، مهما يكن التحويل بشكل غير كامل.

ومثلما رأيت أنا في السابق في آنهوي، فإن الحالة بالنسبة إلى الفلاحين إذا مكثوا في الأرياف حالة رهيبة. ولكن إذا استطاع الفلاحون أن يستمروا في الخروج وإيجاد عمل ثم العودة لتحسين مستوى المعيشة في الأرياف، فسيكونون هم، لا المثقفون، من ستعمل حياتهم المتغيرة ببطء على تحويل البلاد. بعدئذٍ، ربما يمكن في يوم ما أن تكتب مرثاة للنهر الأصفر ولكل ما يرمز إليه.

مازال النهر يجري، طبعاً، عبر قلب لانجو، غير واع للوم الذي يوجه إلى مياهه الهادئة الموحلة. وهو يتأمل، متجهماً تقريباً، عابراً من خلال المدينة.

وأُمضي أصيلاً كسولاً في الشوارع الدخانية الضبابية، الحارة حرارة شديدة، أتجول حول النهر الأصفر، آكل في بار صاخب يقدم حساء المعكرونة الطويلة، متجولاً في الأسواق المكتظة، وأنزل نحو النهر نفسه لمجرد النظر إليه، وهو رمزي جداً، ومثير للجدل جداً.

في الأزمنة الخوالي، كان يقال إن الزمان الذي يجري فيه النهر الأصفر نقياً سيكون هو زمان الحاكم العظيم الحكيم. ودخلت جملة «حين يجري النهر الأصفر

نقياً» إلى اللغة الصينية بوصفها تعبيراً عن الاستحالة، شيء مثل القول في اللغة الإنجليزية: «حين تتجمد جهنم». ومن غير المحتمل أن يجري النهر نقياً في أي وقت قريب. و«الزرقة» المفترضة للتصنيع بحسب الأسلوب الغربي تضيف التلوث الذي صنعه الإنسان إلى الطمي الذي تسبب في إحداث ألف فيضان. النهر الأصفر الآن رمزي لا لمجرد طول عمر حضارة الصين القديمة، بل للمخاطر البيئية المحيطية كذلك الناجمة عن المسار الذي سلكته البلاد إلى الحداثة.

إذا كان نصف مشكلات الصين في القرون الحديثة مشكلات ثقافية، فإن النصف الآخر كان مشكلات جغرافية. الجغرافية أعطت أوروبة يداً سهلة. فلا صحاري فيها، وفيها بعض الجبال ولكن مع الكثير من خطوط الشواطئ أيضاً، وأوروبة ليست في أي مكان منها بعيدة جداً عن البحر. أما جغرافية الصين، فكانت مسألة أخرى، في عزلتها القارية الهائلة.

في القرون الأولى، لم يكن وجود البلاد في عزلة يشكل تلك المشكلة الكبيرة. فقد كانت الصين قارة مكتفية ذاتياً، ولكنها مع ذلك طورت حضارة مجيدة قبل الغرب بمدة طويلة. وفي القرون الحديثة، مع ذلك، أدى انفجار الاختراعات والاستكشاف الذي تلا عصر النهضة، والإصلاح الديني، والتنوير، أدى إلى تحويل المجتمع الأوروبي. والاختراعات الصينية، التي نُقلت من خلال العالم العربي، كانت أيضا عاملاً كبيراً في ظهور أوروبة، الذي حدث تماماً في الوقت الذي كانت فيه أمجاد الصين قد بدأت تركد. كان الأوروبيون جيراناً، وخصوماً، ومتنافسين، ويقاتل أحدهم الآخر كثيراً جداً بكل تأكيد، ولكنهم كانوا يتطورون أيضاً من خلال التنافس. وأكثر ما افتقدته الصين هو المنافسون. والمشكلات التي نجمت عن عزلة الصين الجغرافية ازدادت تعقيداً بالاستيلاء على المناطق الغربية على أيدي أسرة شينغ في القرن الثامن عشر، وهو ما أضاف مع ذلك المزيد من الأرض التي يصعب حكمها.

وتحدد لانجو بداية هذه الأرض الشديدة الصعوبة، وهي امتداد من الأرض كانت تعرف دائماً باسم ممر هوشي. وتعني «غرب النهر» (كما في النهر الأصفر)، والممر الضيق من الأرض القابلة للسكن التي تمتد إلى الشمال الغربي من لانجو إلى آخر

قلعة من الجدار العظيم، في جايوغوان، على بعد 350 ميلاً إلى الشمال الغربي، كانت تعرف تاريخياً باسم «عنق الصين». كانت تلك هي الطريق الوحيدة للأشياء لتتدفق داخلة وخارجة على طول طريق الحرير من الشمال الغربي في الأزمنة القديمة، وقد فعل الصينيون كل شيء ممكن للإبقاء على الإمساك بها. والقلعة في جايوغوان، المعروفة باسم «فم الصين،» كانت هي المعادل الصيني لمر خيبر، الذي حرس المدخل إلى الهند البريطانية من الشمال الغربي.

بعد ذلك مباشرة سوف يرتفع جبل تشيليان على الجانب الجنوبي من الطريق، مدفوعاً إلى الأعلى من هضبة التيبيت وكأنه مدفوع بيدين إلهيتين تكتونيتين مؤسساً حاجزاً طبيعياً جنوبياً ضد صحراء غوبي المتقدمة بسرعة. وإلى الشمال من الطريق تبدأ مباشرة الصحراء الحقيقية، التي تمتد شمالاً لأكثر من خمس مئة ميل.

التاريخ والتقدم يسابق أحدهما الآخر في الشمال الغربي على طول ممر هوشي. السكة الحديدية الممتدة من لانجو إلى أورومجي، التي اكتملت في العام 1963، تسير في أماكن منها على طول بقايا جدار الصين العظيم. ويقع الطريق 312 إلى الجنوب من السكة الحديدية والجدار، نوع من خط حديدي حي ثالث، يتجه أيضاً نحو الشمال الغربي. والبلدات الواحات على طول مساره تنتشر على الطريق مثل حبات خرز، معلقة طليقة على عقد يسير على طول الحد الجنوبي للصحراء.

إلى لانجو، كان الطريق 312 بروزاً غير معروف من الزفت، طريقاً من العصر الشيوعي لم يسمع به أحد قط من خارج الصين. والآن يوجد مساران من 312 يبرزان من ضواحي لانجو، وجسران يحملانهما عبر النهر الأصفر. وهناك الطريق القديم المتداعي، الذي خدم بصفته مساراً رئيسياً إلى الشمال الغربي منذ الخمسينيات من 1950، من أجل السلع القليلة أو الناس الذين لم يسافروا بالخط الحديدي. وبعدئذ هناك الطريق الجديد 312، وهو طريق سريع بأربعة مسارات يستوعب الآن الحجم المتنامي للمرور على طرق المسافات البعيدة وصولاً إلى الصحراء.

كلا الطريقين يجد من الصعب، مع ذلك، أن يلبس العباءة التي يخلعها عليهما التاريخ. وذلك لأن هذا هو الآن طريق الحرير القديم، عقدة طرق التجارة التي

امتدت في الأزمنة القديمة مثل خيوط ذهبية عبر صحراء غوبي، رابطة الصين مع آسيا الوسطى، وبلاد فارس، وفي النهاية مع أوروبة. ويقول المؤرخون إن الطريق يبدأ في شيان لأن شانغان (كما كانت تعرف في تلك الأيام) كانت هي عاصمة الصين في ذروة طريق الحرير في القرنين السابع والثامن، وكانت هي نقطة البداية والمحطة المقصودة الأخيرة لكل شيء تدفق على طول هذا الطريق. ولكن طريق الحرير، في ذهني، كان دائماً قد بدأ في لانجو، وذلك لأن الطريق هناك فقط يبدأ فعلاً بإعطاء الشعور مثل طريق الحرير. هنا توجد الصحراء، وهنا توجد الواحات، وهنا توجد الجِمال.

طوال الساعات القليلة الأولى خارج لانجو، تكون المناظر الطبيعية قابلة للنسيان. فالصحراء تبدأ بتلال غير منتظمة السطوح بلا اسم تخنق الطريق بصفرتها. قبل لانجو، كان اللون الأصفر من هضبة الرواسب الطفالية قد بدأ يتسرب إلى كل شيء، ولكن الخضرة وحقول المحاصيل كانت مازالت موجودة على جانب الطريق. أما هنا فقد تم التخلي عن معظم الجهود التي بذلت للزراعة، والتلال المنخفضة ترتفع وتهبط في موجاتها الصفراء وكأن اليخضور لم يسبق له أن اختُرع قط.

وباستثناء اللون، فإن الخواء هو الذي تلاحظه. إن من السهل أن تشعر بالخوف من الأماكن المغلقة في صين الهان، وهي المشبعة للغاية بالاستيطان وبتاريخ الاستيطان. لا يكاد يوجد ميل مربع من الأرض الزراعية أو الريفية او الحضرية، ليس مزدحماً بآلاف الناس. وهنا تلتصق القرى التي تظهر من حين إلى آخر بسفوح التلال الصفراء، ولكن الأرض غير مأهولة إلى حد كبير. هناك إحساس بالتحرير الشديد والطريق تمد أطرافها خارجة إلى الصحراء. وأنا أكتب في دفتر ملاحظاتي: «أنت الآن تغادر الفضاء الجوي الصيني».

يجلس أمامي مباشرة في حافلة الركاب ثلاثة رجال في ملابس العمال الوسخة. إنهم عمال مهاجرون كانوا في التيبت، يبنون طريق السكة الحديدية التي سوف تربط عاصمة التيبت، لاسا، مع بقية الصين. وهم في الأصل فلاحون من وادٍ على الطرف تماماً من الطريق 312، وهم عائدون إلى البيت لجمع المحصول.

افتتحت سكة حديد التيبت في العام 2006، وهي مشروع كبير مولته الحكومة يربط التيبت بالخط الحديدي لأول مرة مع بقية الصين. وهو أعلى خط حديدي في العالم ويسير لمسافة أكثر من سبع مئة ميل من مدينة غولمود إلى عاصمة التيبت، لاسا. والنقطة التي ترتفع فيها السكة عبر ممر تانغولا في طريقها إلى لاسا تكون على ارتفاع 16,640 قدماً ـ وهي أعلى من أعلى قمة في الولايات الثماني والأربعين التي تنخفض عنها في الولايات المتحدة (جبل وتني)، وأعلى من أعلى قمة في أوروبة الغربية (مونت بلانك). وسيارات الركاب يضبط ضغطها مثل الطائرات لتجنب مرض الارتفاعات. وتقول الحكومة إن السكة الحديدية سوف تساعد على تطور التيبت. النشيطون السياسيون في الخارج التيبيتيون في التيبت يقولون إنها سوف تسهِّل فقط تدفق الهان الصينيين إلى التيبت، وتسهل استخراج الموارد الطبيعية. وكلا التحليلين صحيح.

وأسأل رفاق سفري: «كم كان الدفع في العمل في السكة الحديدية؟»

ويقول واحد منهم مع ابتسامة عريضة: «جيد جداً. كان ألفي يوان تقريباً في الشهر».

وذلك 250 دولاراً، وهو ضعف ما يستطيع أن يكسبه الفلاح المتوسط في عام.

ويستمر في القول: «ولكننا فلاحون، ويجب علينا أن نعود إلى البيت في الصيف. وبعد أن نحصد المحصول، سوف نتوجه عائدين إلى التيبت لإنهاء السكة الحديدية».

«حياتكم، إذاً، أفضل بكثير من ذي قبل؟»

ويقول الرجل نفسه، وابتسامته تكشف عن عدد من الأسنان العوج: «طبعاً! كانت في العادة تعتمد على السماء لنبقى على قيد الحياة. ولكنها الآن لا تعتمد عليها».

وساد الصمت ونحن نفكر في ضخامة ما قاله قبل قليل. أنا أفكر فيه، على أي حال.

وأقول في النهاية: «ذلك تغيير كبير». وهو يومئ برأسه.

إنه ليس تغييراً جاء بين عشية وضحاها. ولكن، في الوقت الذي يكون فيه الإصلاح السياسي مسدوداً، فإن هذا هو ما يغير الصين. إنها المرة الأولى في التاريخ التي يكون فيها فلاح من هذا الوادي، أو من أي واد قريب هنا قادراً على أن يقول «نحن

لا نعتمد على السماء للبقاء على قيد الحياة».إذا سقط المطر، أو ماتت المحاصيل، فهذا سيسبب لهم مشكلات، ولكنهم لن يموتوا. إنها المرحلة الأولى في تمكين الأسماء المائة القديمة، في صراعهم الأبدي مع السماء. التحسين اقتصادي بشكل جازم. ويجري استغلال الفلاحين حين يصلون إلى أعمالهم الصناعية الجديدة، والقرى التي يعودون إليها هي أفقر حالاً هنا في غانسو مما كانت عليه في الخلف في آنهوي. ولكن الناس في مقاطعة غانسو شاكرون مقابل أعمال إحسان قليلة، وبالنسبة إلى هؤلاء الرجال الثلاثة ولعائلاتهم، إنه تمكين على كل حال.

أبراج أعمدة الكهرباء الضخمة تقف بارزة على التلال مثل الفزاعات، وهي علامة مجيدة على التقدم، بلا شك، للناس في هذه الوديان النائية، التي ضربها الفقر. وبعد قليل ينزل الرجال الثلاثة من حافلة الركاب ويلوحون بالوداع، عائدين مؤقتاً من هوياتهم الجديدة بصفتهم عمالة مهاجرة ليكونوا فلاحين مثلما كانوا فيما مضى. هم وأسلافهم تصارعوا مع الأرض، ومع السماء، طوال قرون عديدة، وفي مرات عديدة كانوا قد خسروا. أما الآن فيوجد لديهم خيار آخر.

مازالت هناك رحلة طوال عدة ساعات على الطريق 312 لنصل إلى أول بلدة واحة كبيرة من الصحراء، وهي واوي. الطريق واسع ومستقيم، وحافلات الركاب، والشاحنات الزرقاء، والسيارات العادية من حين إلى آخر تسرع منطلقة، أسرع من أي قافلة جمال سبق لها أن سافرت في أي زمان. في واوي، وأنا أغير حافلات الركاب وأغادر الطريق 312 مؤقتاً، متجهاً إلى مسافة ساعتين شمالاً، إلى مدينة مينشين. واوي هي في الأصل على حافة صحراء غوبي. وبالسفر إلى مينشين، فأنا أغطس في قلب الصحراء. فهذه البلدة التي يسكنها 300,000 نسمة منتصبة على نحو خطر عند نهاية طريق يمتد صاعداً من الطريق 312 مثل رصيف بحري أخضر يمتد إلى بحر محيط من الرمال.

وطوال قرون كان الفرسان القادمون من الشمال هم أكبر التهديدات للمستوطنات الصينية هنا. والآن مازال التهديد الكبير يأتي من الشمال ولكنه يأتي في شكل

obeikandl.com

الصحراء العادية على العمران، التي تزحف نحو مينشن بمعدل عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً في كل عام. مازال هناك قلة من القرى إلى الشمال وإلى الشرق والغرب، ولكن الناس قد غادروها بالتدريج وانتقلوا إما إلى مينشين نفسها أو إلى أبعد كذلك نحو الجنوب، الصحراء بلا رحمة في استهلاكها للأرض، وهي حالة ازدادت تعقيداً زيادة مأساوية بالأخطاء الفاحشة التي يرتكبها الإنسان، مثل بناء السدود على أي أنهار موجودة والاستخدام غير الفاعل للموارد المائية. وكذلك فإن اجتثاث الغابات في الماضي لم يكن معيناً أيضاً، والجهود المبذولة الآن لزراعة الأشجار لعكس اتجاه العملية تبدو جهوداً لا تعمل. وتماماً في الوقت الذي تحتاج فيه الصين إلى توسيع أراضيها القابلة للزراعة فإنها تفقدها.

مينشين أفقر من العديد من المدن الموجودة على الطريق 312. فالرواتب، ولو للمحظوظين أنفسهم، تحوم تحت مستوى مائة دولار أمريكي بشكل كبير في الشهر. ومباني الشقق فيها قديمة، والميزان لم يبدأ بمجرد الميلان من ملكية الدراجات إلى السيارات. ولكن مازال هناك طاقة في مينشين، مثلما هو موجود في معظم المدن الصينية الصغيرة، مهما تكن فقيرة، وكأن الناس يرفضون أن يقبلوا قدرهم الجغرافي وهم عازمون على الاندفاع قدماً نحو هدفهم الخاص المتواضع من «الرفاهية المعتدلة».

قبل بضعة أشهر، في حفل في بكين، كنت قد قابلت شاباً صينياً، وهو صديق لشخص أمريكي من أصدقائي، ويعمل في بكين ولكن بلدته الوطن هي مينشن. وذكرت له أنني قد أمر عبر بلدته في الصيف. وقال إنه سيكون موجوداً هناك زائراً لأسرته وأن علي أن أهاتفه. وهكذا فعلت، وأتى ليأخذني من محطة حافلات الركاب لأقابل أسرته.

ويصر صهره على اصطحابنا إلى العشاء في ذلك المساء مع كل أصدقائه في العمل. فليس مألوفاً كثيراً في هذه النواحي أن يظهر أجنبي فيها، وهذه هي النبرة العامة للدعوة، ونحن نريد أن نريك وقتاً طيباً. ونشرع في تناول أطباق وجبة لذيذة من الطعام المقلي على الطريقة الصينية السريعة، وعلى هذه الوجبة قام عشرة رجال

صينيين فضوليين من بلدة صغيرة وهم منتشون ثملون بشكل متزايد قاموا بامتحاني بأسئلة عن كل شيء تحت شمس صحراء غوبي الغاربة. إنهم من بين سكان البلدة المحظوظين حظاً أكثر، والعديد منهم من صغار موظفي الحكومة أو من الموظفين في شركات تملكها الدولة وما زالت موجودة هنا. كلهم فضوليون حول زائرهم، ومن المحتمل أن أكون أول أجنبي سبق لأكثرهم أن قابلوه في أي وقت. ماذا أظن في الصين؟ وماذا أظن في الجامعات الصينية؟ وماذا أظن في اليابان؟ ولماذا تساعد الولايات المتحدة الدالاي لاما والحركة الروحية المحظورة فالون كونغ؟ وهل الرعاية الصحية في أوروبة مجانية فعلاً؟ ولماذا يحب الأمريكيون الأسلحة؟

ثم يصير الامتحان شخصياً. فالشعب الصيني، الذي ترعرع على وجبة من الأفلام الهوليوودية، وفضائح الجنس السياسية، وسوء سلوك النجم الغربي للروك، يفترض أن الرجال البيض، متزوجين أو عزاباً، هم مجرد حفلة حيوانات طوال أربع وعشرين ساعة (لنتحدث بأدب). ويسألونني كم خليلة لي؟ وكم خليلة توجد لمعظم الرجال الغربيين؟ وأصيبوا بخيبة أمل حين علموا أن ضيفهم ليس مزيجاً من بل كلينتون وميك جاغر الذي كانوا يتوقعونه. وقال واحد منهم له بطن ناتئ وتسريحة شعر معيبة: «لا خليلات؟ يجب أن يكون لكل رجل كثير من الخليلات قبل أن يموت».

وقرر المضيفون لي في الحال أن الطريقة الوحيدة بالنسبة إلي لاسترداد ذكورتي هي أن أشارك في بعض ألعاب الشراب، التي يشرحونها لي الآن. وكل الألعاب تتضمن الخمر الصيني السيئ السمعة المعروف باسم بيجيو، وهو فعلاً أكثر المرطبات إثارة للتقزز سبق أن اعتصر من حبة رز. وكنت حتى ذلك الحين قد نجحت بتمضية المساء من دون أن يكون علي فعلاً أن أشرب أي شيء. ثم يقف واحد من المشاركين في العشاء ويقترح نخباً: «أود أن أشرب نخب الصحافي شي، لأرحب به، ولأشكره على المجيء إلى هذه البلدة الصغيرة المتخلفة من الصين».

وأقول: «لا، لا، أنتم تتطورون تطوراً سريعاً جداً».

ويقول هو: «لا، لا، أنت لست مجبراً أن تكون مؤدباً. نحن نعرف أننا متخلفون. يجب أن نقول الحقيقة. ولكننا سعداء في أن نرحب بك هنا».

ثم إني أتقدم لأعمل بشكل جيد نوعاً ما في لعبة تلاميذ المدرسة في الشراب. واللعبة المتصلة اتصالاً بعيداً مع لعبة حجر ـ ورق ـ مقص ولكنها أعلى صوتاً، وتتضمن مشاركة اثنين يدفع كل واحد منهما بعدد معين من أصابعه من يد واحدة في الوقت الذي يصرخ فيه برقم ما. إذا بلغ عدد الأصابع التي أبرزتها أنت حين تُجمع مع عدد الأصابع التي أبرزها خصمك إذا بلغ الرقم الذي صرخت به أنت، فعندئذٍ يجب على خصمك في اللعب أن يشرب. فإذا كان هو الذي حصل على الرقم بشكل صحيح، فأنت الذي تشرب. سهلة جداً، بالفعل. وبطريقة ما حافظت على الحصول على الرقم بشكل صحيح، ولكن ليس من دون فقدان القليل من المرات، وأكشر وأنا أبلع الجرعات المطلوبة من خمر الرز المروع. ثم نجحت في أن أتظاهر بالاهتمام في المحادثة مع واحد من الرجال الذين لا يلعبون اللعبة وانتزعت نفسي من المجموعة الصلبة للشراب الذي يتوالى. ومع ذلك، فإن بضعة جرعات من بيجيو كانت كافية لتجعلني أترنح قليلاً وأنا أغادر المطعم وأتوجه راجعاً إلى فندقي الرخيص.

obeikandl.com

obeikandl.com

15

«نريد أن نعيش!»

حين يصل الأمر إلى كتابة التقارير عن الصين، كنت دائماً أتفق مع نظرية وودي ألين. وستذكرون أن أشهر متشائم في نيويورك قال مرة: إن 80 بالمائة من النجاح هو ببساطة الظهور. والأمر كذلك مع الصين الحديثة. وأنا أتحدى أي مراسل أن يجعل الصين مملة. فكل شيء عن الصين تقريباً مثير للدهشة والاهتمام، وذلك في وجه من الوجوه لأنها مختلفة عما تتوقع. إن واحداً من أعظم الأشياء بشأن العيش هنا، بعيداً تماماً عن الفرصة لملء أقسام حروف كيو، واكس، وزد في دفتر الملاحظات، هو مجرد الذهاب مع التدفق، المشي خارجاً في الصباح مع خطة غامضة جداً فقط ورؤية أين يأخذك اليوم. إنه يأخذك دائماً تقريباً إلى مكان ما لم تكن قط قد تنبأت به.

حين أخبرت أصدقائي في بكين أنني كنت سأسافر على الطريق 312 من الشرق إلى الغرب، سألني العديد من الناس إن كنت سأجري الكثير من المقابلات والاجتماعات على طول الطريق. كما تبين، فقد هاتفت مسبقاً في مرات قليلة، وقمت ببعض البحث لأجري مقابلات عن موضوعات أردت على وجه التحديد أن أضمنها. ولو كنت أقل انشغالاً، لربما أعددت إعداداً أكبر. ولكن على كلتا الحالتين، كان سيوجد الكثير الوفير للكتابة عنه. تقريباً، كنت أصعد إلى حافلة الركاب، أو سيارة الأجرة، أو الجمل، وأنطلق فقط.

يمكن لأي شيء أن يحدث على الطريق في الصين، وبلا استثناء يحدث فعلاً، ولكن بعض الأيام أفضل من بعض، وهناك قلة من الفترات التي امتدت لمدة اثنتي عشرة ساعة في هذه الرحلة وكانت غير عادية تماماً، مثلما حصل في يوم صيفي طويل بدأ في فندق داكن بلا مناشف في مركز مينشين.

ونظراً إلى أنني كنت أعرف أنني سأغادر مبكراً في الصباح التالي، فقد تركت ستائر غرفتي الرثة مفتوحة على سعتها. ولم يكن في الغرفة تكييف للهواء، وكانت

الليلة حارة. وأسهم خمر الرز في نوم عميق في الليل. وأيقظتني أصابع الفجر البرتقالية ببطء فقط وهي تنتشر فوق البلدة التي يمكن أن تنسى الموجودة خارج نافذتي. واستحممت برشاش ماء بارد (وهو الوحيد المتوافر)، وسجلت مغادرتي من الفندق، وتوجهت إلى محطة حافلات الركاب، وهي مستيقظة من قبل، مثلما هي محطات الحافلات دائماً.

ويتنافس السائقون من أجل الأعمال. وآخرون يحمّلون الحقائب على ظهور حافلاتهم. ويجلس الركاب عند أكشاك صغيرة للطعام المحمول الموجودة أمام مبنى المحطة الرئيسية، يأكلون الكعك المقلي المحشو بمدمس من الحبوب كالفول أو يأكلون كرات العجين المسلوقة وهم ينتظرون حافلاتهم لتغادر. والبخار يتصاعد من القدور وأوعية القلي من باعة الطعام المتجولين.

هناك اتجاه واحد فقط للخروج من مينشين، هو اتجاه الجنوب، على طول الممر الأخضر الضيق الراجع إلى الطريق 312. وتستطيع أن تستشعر الصحراء تلوح هائلة مخيفة هناك في مكان ما، وفي كل مكان، ولكنك ما لم تكن مجنوناً، أو بدوياً منغولياً مترحلاً، أو بدوياً منغولياً مجنوناً، فليس هناك سبب للذهاب إلى الشمال من مينشين إلى صحراء غوبي.

حافلة الركاب متجهة إلى بلدة جينشانغ، وهي أبعد على طريق 312 في الاتجاه إلى الشمال الغربي، وهكذا بدلاً من التوجه نزولاً إلى بلدة واوي والانعطاف إلى اليمين، فهو يغوص بعيداً عبر الريف على الوتر الواصل إلى الطريق 312، على طول طريق ضيق تصطف عليه أشجار نحيلة وبيوت طينية قليلة تتشبث بالطريق مثلما تنجذب برادة المعدن إلى مغناطيس. وأسلوبي المعتاد العشوائي في اختيار مقعدي رسا بي إلى الجلوس إلى جانب رجل محلي يناهز الأربعين من عمره، ويعمل في بعض العمل التجاري الصغير، يبيع الحبوب والرز في مينشين وجينشانغ. وتبين أنني أول أجنبي يراه في أي وقت، ونجح في المقاومة طوال دقيقة ونصف قبل أن ينفتح، ويحل الشعر الأشقر على ذراعي. وندخل في الامتحان المعتاد عما إذا كنت أحب الصين أم لا ونصل بسرعة مناسبة إلى: كم طفلاً عندك؟

«اثنان».

ويسأل: «هل ستنجب أكثر؟»

«يحتمل».

«إذاً بلادك لا تحدد عدد الأطفال الذين ينجبهم الناس؟»

وأخبره قائلاً: «لا، ذلك متروك للفرد، ففي بلدي لا تستطيع الدولة أن تتدخل في الحياة الشخصية لشعبها». وأنا دائماً أجعل هذه النقطة، إسهامي، مهما يكن صغيراً، نحو إحداث الثورة.

عند هذه النقطة، أقحمت نفسها في الحديث المرأة التي تجلس عبر الممر من ناحيتي. فهي، مثل كل الركاب الآخرين، كانت تسمع محادثتي مع جاري.

وتقول المرأة: «ليس صواباً أن يكون لك أكثر من طفلين».

«عفواً لم أفهم؟» وأنا أقول ذلك في غاية الأدب المصطنع. بصوت من يقول: هل تتحدثين معي؟

وكررت: «ليس صواباً أن يكون لك أكثر من طفلين».

وأبتسم لها وأقول: «أعتقد أنك تستطيعين القول إنك لا توافقين على ذلك، أو أنك نفسك لن تنجبي أكثر من طفلين، ولكن لا تستطيعين القول إنه ليس صواباً».

وتبتسم هي بعد ذلك مباشرة، وهي الابتسامة التي يبتسمها الصينيون متوسطو الأعمار حين يكونون على وشك رعاية شخص أجنبي ومناصرته. للمرأة شعر قصير، مصبوغ بالأسود، والجذور الرمادية للشعر الأشيب لا تكاد تُرى في الفرق الأوسط من شعرها. وهي تلبس بنطالاً وبلوزة بنيتين لا يتميزان بصفات محددة، وهي امرأة صينية نموذج للمرأة المتوسطة العمر ذات القصد الحسن، وهي من الجيل الضائع للثورة الثقافية، ربما تناهز الخامسة والأربعين أو ربما الخامسة والخمسين من العمر. وهي ودودة ولكنها متمسكة برأيها، ومستعدة بلا شك أن تعطيني محاضرة عن الأخلاقيات الغربية الطليقة، أوعن كيفية تنشئة أطفالي، أو كما هو في هذه الحالة، كم عدد الأطفال الذين تنجبهم.

وأسالها: «ما الذي يجعلك تقولين إنه ليس صواباً؟»

وتجيب بكبرياء: «لأنني أعمل في تخطيط الأسرة».

«وهكذا فأنت طبيبة؟»

«نعم. أنا مسؤولة عن التخطيط للأسرة في هذه المقاطعة».

«وأنت تسافرين في هذه الناحية لفرض سياسة الطفل الواحد؟»

«نعم»

وأدرك ما يتضمنه عملها. ويسافر معها ممرضتان شابتان، ربما في أواخر عشرينياتهما من العمر، أو ربما في مطالع الثلاثينيات. إحداهما تجلس إلى جانبها، وتبدو متأنقة متزمتة حسب الأصول للغاية، والأخرى تجلس خلفها تنحني إلى الأمام وتستند على مسند الرأس في مقعدها لتشارك في المحادثة.

«وهكذا... فأنت تسافرين في هذه الناحية لتقدمي فحوصاً للنساء». أقول ذلك وأنا أسهل بلطف الوصول نحو الأسئلة التي أريد فعلاً أن أسألها.

«نعم. ذلك هو ما نحن ذاهبون إليه الآن».

«وماذا يحدث إذا وجدت أن هناك نساء حوامل، وهن ممن لا ينبغي أن يكن حوامل؟»

«نحاول أن نقنعهن بأن يجرين إجهاضاً».

«وإذا لم يوافقن؟»

وتقول وهي تتوقف قليلاً: «يجب علينا أن نجبرهن. فأنت تعرف أنه يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

كل شخص صيني يقول هذا. وهو، طبعاً، صحيح، ولكن قد تم التطبيل بذلك في عقول الصينيين للعديد جداً من سنوات الدعايات إلى درجة صارت معها كلاماً مقدساً. وأهم من ذلك، أنه ليس رأي هذه المرأة فقط، إنه أيضاً وظيفتها لتفعل شيئاً ما بشأنه.

obeikandi.com

«ولكن كيف تجبرونهن بالقوة؟ ماذا لو لم يذهبن؟»

«يوجد إدارة من الشرطة في كل بلدة أو مقاطعة تقوم بفرض تنفيذ قوانين تخطيط الأسرة بالقوة. فهم يذهبون إلى بيت المرأة، وإذا لم تأت طوعاً، فسوف تؤخذ إلى المستوصف قسراً بالقوة».

كثيرون من مسؤولي تخطيط الأسرة في المناطق الحضرية، بل في البلدات الصغيرة كذلك، يعرفون أن عليهم ألا يتحدثوا إلى الغربيين حول مثل هذه المسائل. فهم يعرفون أنه موضوع حساس في الغرب، وهو موضوع يستثير نقد الصين على رغم أن الكثيرين منهم لا يفهمون لماذا؟ إن هذه المرأة لا تشعر بأي قيود من مثل ذلك.

وأسألها: «ولكن ماذا لو أن هناك امرأة حاملاً في الشهر الثامن، ولا يجب أن تجهض؟»

«هي...». وتقوم المرأة بيديها بعمل إشارة بفعل أمام معدتها، فعل يشير إلى إجبار شيء ما على الانفتاح والتدفق بعيداً.

وأشهق قائلاً: «ولكن ذلك الحمل طفل حي، يمكن أن يولد ويبقى على قيد الحياة».

وترفع المرأة كتفيها وهي تبتسم ابتسامة باهتة. «يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

لقد سبق لي أن سمعت مراراً عن هذه الحالات. وفي الحقيقة، هي معلومات عامة وهي أنه منذ أن تم وضع سياسة الطفل الواحد، في أواخر السبعينيات من 1970 ومطالع الثمانينيات من 1980، صارت الإجهاضات القسرية وأعمال التعقيم عملاً روتينياً كاملاً، ولو كانت المرأة في الفترة الثالثة من الحمل. ولكنني لم أقابل قط أي شخص منغمس في العملية.

«وهكذا فأنت هي الشخصية التي عليها فعلاً أن تقوم بتلك العملية؟»

ويبدو أنها لا تهتم لسؤالي. وقالت وهي تضحك قليلاً: «نعم».

والضحكات الصينية تقول العديد من الأشياء، وليس من الممكن أن تقول إن كانت هذه ضحكة عن كبرياء بعملها في إبقاء الشعب الصيني منخفض العدد أو ضحكة من الإحراج من الاضطرار لفعل مثل هذا العمل.

«ولكن ألا تجدين ذلك... وحشياً قليلاً؟» ولم أكن أستطيع أن أخفي ليّ وجهي وأنا أسأل السؤال.

وتبتسم هي ثانية. «إنها ضرورية. يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

وأستدير إلى المرأتين الشابتين، باحثاً عن توكيد أنهما لن تكونا منغمستين في مثل هذه الوحشية. ربما أنهما تقفان في الاحتياط فقط ولكنهما لا تأخذان دوراً.

«ولكن كيف تفعلنها فعلياً؟ كيف تقتلن جنيناً في الشهر الثامن؟»

وتتطوع أكثر الممرضتين شباباً، وهي مترددة نوعاً ما. «تحقن في رحم الأم، وذلك يقتل الطفل».

«ولكن مازال على الأم أن تلد الطفل، أليس كذلك؟»

«نعم. أحياناً لا يموت الطفل في الرحم ويكون مازال حياً حين يولد. ولكن، نحن نتركه... وهو..»

الممرضة التي علمت بعد ذلك أنها هي نفسها أم لطفل صغير السن، ارتسمت على وجهها نظرة متألمة قليلاً وهي تتوقف عن الكلام في منتصف الجملة، وكأنها ممزقة بين عواطف كونها أماً وبين ما عُلِّمت بأنه واجبها نحو بلادها.

إنني مصدوم منذهل، وأنا لست الشخص الوحيد في هذا كما هو واضح. ويجلس في المقعد الواقع خلفي رجل صغير بوجه كوجه الفأر كان ينصت لكل المحادثة وتمتم يقول: «الشعب الصيني شرير جداً»

«عفواً لم أسمعك جيداً». أظن أنني لم أسمعه بشكل صحيح.

وهو يهز رأسه فقط، لا يريد مواجهة مباشرة مع الطبيبة، ويستدير بعيداً، لينظر من النافذة إلى الأرض غير المزروعة ذات النباتات المتناثرة غير تامة النمو في الصحراء المتكسرة التربة. وهي تمر مندفعة عنا. وذراع الرجل تحتضن ولداً يناهز الثامنة من العمر.

وأعود ملتفتاً إلى الطبيبة: «إذاً هل عليكم أن تفعلوا ذلك مرات كثيرة جداً؟»

«أقل كثيراً من ذي قبل. في الثمانينيات من 1980 كانت في كل الوقت. الآن، تغير تفكير الناس، وهم يريدون أن ينجبوا أطفالاً أقل عدداً. وهم يرون المنافع».

وأسألها: «ولكن هل أجريت واحدة من هذه العمليات حديثاً؟»

«ليس في غضون الأسبوعين الأخيرين أو ما يقارب ذلك».

أولم تدرك أن ما تقوله حساس؟ بالنسبة إليها، إنه منطقي، ووطني وجيد. وحين أسألها كيف تشعر بوصفها أماً وهي تفعل هذه الأشياء؟ (وهي نفسها لها طفلان كبيران، كما أخبرتني، ولدا قبل تنفيذ سياسة الطفل الواحد)، فإنها لا تفهم السؤال مجرد فهم. الشعب الصيني ينظر إلى العالم الغربي، مع كل الحمل في السن تحت العشرين وعواقب ذلك، ويتعجب ماذا نعتقد أننا فاعلون حقاً، ونحن نسمح بأن يحدث ذلك في الوقت الذي يمكن فيه حله بإجراء طبي بسيط؟

كان أصدقاء صينيون من الأرياف قد أخبروني (على الرغم من أنني لا أمتلك أي بينة مؤكدة على ذلك) أن مسؤولي تخطيط الأسرة لديهم سطول من الماء في غرف العمليات التي تجري فيه الاجهاضات القسرية، وأن الأطفال الذين لا يقتلون بالحقنة يغرقون في السطول. وأنا أوشك أن أسأل الطبيبة عن هذا وقفت الحافلة فجأة ووقفت هي وممرضتاها ومشين إلى المقدمة، وهن يبتسمن ابتسامة وداعهن.

للحظة كنت أريد أن أتبعهن وأنزل، ولكنهن كن قد صرن يهبطن الدرجات، ويخرجن في قرية صغيرة في وسط مكان ناءٍ مجهول. وكان علي أن أستخرج حقيبتي وأقنعهن بأن يسمحن لي بالذهاب إلى المستوصف معهن، وهو ما سيكون غير ممكن. ثم سيصل المسؤولون ويرغبون في التدقيق في جواز سفري، مع وجود تأشيرة الصحافي عليه. وفي

obeikandl.com

الوقت الذي أتردد فيه، انطلقت الحافلة ثانية، وتُرِكت أنظر إلى الخارج من خلال النافذة الخلفية إلى النساء الثلاث وهن على جانب الطريق، يجمعن حقائبهن.

وأجلس وأنا ساخط ونادم على قراري بألا أنزل.

ربما يكون أكثر الأشياء المروعة هو أن الطبيبة مجرد امرأة عادية متوسطة العمر. ولا تبدو شريرة أو غير إنسانية، ولها أطفال، وربما يكون لها أحفاد. ولكنها تطبق هذه السياسة الوحشية بإخلاص وبهدوء على مايبدو كما لو كانت تصمم أنظمة مرور. كيف تكون الحكومة الصينية قادرة على جعل الناس يفعلون هذه الأشياء؟ ما هو الشيء الذي يجعل أماً لاثنين أن تغضي عن إنسانيتها وتعتقد أنها تعمل شيئاً رائعاً ووطنياً بقتل أجنة لم يلدوا بعد وبلغوا الشهر الثامن من الحمل؟

على الرغم من كل التغيرات، والأضواء البهيجة في شنغهاي، ونانجينغ، وشيان، مازالت الدولة مهيمنة في الصين، وستكون مطاعة في القضايا التي تهتم بها. وفي نهاية المطاف، وعلى الرغم من كل التغيرات، فإن حقوق الفرد لا تساوي الكثير من الأهمية.

وتستمر حافلة الركاب في سيرها مجلجلة عبر أطراف الصحراء، وأنا أستمر بالتسخط، وكراهية الصين. إن هذا اليوم واحد من تلك الأيام التي أشعر فيها بكل بساطة بأني سعيد لأني أغادر.

طريقنا الضيق يسير موازياً للطريق 312 الآن، على بعد خمسين ميلاً تقريباً إلى الشمال منه. والطريق أضيق من أن يتسع لمرور حافلتين بالسرعة العادية، والسائق يخفف سرعته حين تواجهه شاحنات أو حافلات في الاتجاه المعاكس. الأسماء المائة القديمة يركبون دراجاتهم على طول الطريق، إلى السوق أو إلى قرية مجاورة، يتمايلون في الهواء المزاح من الحافلات أو الشاحنات التي تعبر. وتوجد سيارات خاصة قليلة باستثناء سيارة فولكسواجن سوداء رسمية تمر بين الفينة والفينة أو سيارة أودي مسرعة في رحلة تفتيش، أو عائدة من غداء طويل.

الرجل ذو الوجه الفأري الذي يجلس خلفي لا يرغب بالحديث، ولكن امرأة أخرى تصعد إلى الحافلة وتجلس إلى جواري. عملها شيء ما له علاقة بالري في أقرب

بلدة، ونتجاذب معاً أطراف الحديث عن أهمية حفظ الماء. ولم يكن مثيراً للمفاجأة أنها تقول إن حالة الماء هنا يائسة. وحين نصل إلى جينشانغ، وهي بلدة أخرى نائية صحراوية مهملة، وأغير الحافلة إلى حافلة أخرى لركوب يمتد لساعتين إلى بلدة يونغشانغ، وهي تبعد بضعة أميال عن قرية سمعت أن السكان المحليين فيها يدَّعون بعض المزاعم غير العادية عن أسلافهم.

في الأزمنة القديمة، كان كل ما يعنى به طريق الحرير غرب لانجو هو الحركة. وكان أبناء الإمبراطور الأصفر قد مكثوا حيث كانوا، في الصين الشرقية، وأما بعيداً في الغرب، حيث التقى ما يدعى بالحضارة مع ما يدعى بالبربرية، فإن قلة من شعب الهان الصيني استقرت هناك ما لم تكن قد أجبرت على المنفى. ولكن مجموعات عرقية أخرى كانت تترحل باستمرار، وكانت الحركة على طول طريق الحرير قد خلقت حالة دوامة مضطربة من العرقيات في شمال غرب الصين. وربما كان أكثر المزاعم إثارة للآخرين عن الأصل العرقي هو الذي يأتي من قرية صغيرة، على جانب الطريق 312 مباشرة في مقاطعة غانسو المركزية، وفي ظلال الامتدادات الغربية من الجدار العظيم. وتدعى هذه القرية ليشيان، التي تصادف أيضاً أن تكون الكلمة الصينية القديمة لكلمة روما. بعض المؤرخين، والآن بعض المقيمين يزعمون أن الناس الذين يعيشون هناك هم أحفاد فيلق روماني كان قد جاء إلى الصين منذ ألفي عام.

وفكرة أن الناس في ليشيان كانوا قد انحدروا من الرومان هي فكرة طرحها لأول مرة الأستاذ في أكسفورد الذي كان مبتهجاً باسم هومر هازينبفلوغ دوبز. في العام 1955، في محاضرة أمام الجمعية الصينية في لندن، طرح دوبز نظريته، وهي أنه في العام 53 قبل الميلاد، حين هُزم الرومان على أيدي البارثيين في معركة كاري (حرّان، Carrhae) في تركيا الحديثة اليوم، أُخذت فيها مجموعة من الجنود الرومان أسرى ونقلوا إلى آسيا الوسطى، وهناك أسرهم الصينيون ورجعوا بهم إلى الصين.

واستند دوبز في كل نظريته إلى اثنتين من الإشارات الغامضة نوعاً ما وجدتا في الكتابات التاريخية الصينية. إحدى الإشارتين كانت تشكيلاً عسكرياً استخدم في

معركة في الصين وكان تشكيلاً مشابهاً للتشكيل المستخدم في روما، وكانت الإشارة الأخرى نوعاً مشابهاً من البناء. وبكل تردد، هذا هو ما حولها.

لقد قرأت عن الفيلق الروماني المفقود في وقت سابق. بل سبق أن كتب عن الموضوع في الصحافة الصينية الرسمية وكانت موضع ترحيب بوصفه علامة على الاتصال بين الحضارتين الكبيرتين منذ ألفي عام. وحين رأيت أن ليشيان تلك قريبة جداً إلى الطريق 312 قررت أن أقوم بزيارة.

ليشيان نفسها قريبة صغيرة مغبرة، ليس فيها طريق معبد. وكنت وصلت في حافلة ركاب صغيرة إلى البلدة المجاورة يونغشانغ، وبعدئذ ساق بي سائق بابتسامة عريضة كمن يكشر في سيارة أجرة معطوبة من صناعة صينية مدة خمس عشرة دقيقة إلى ليشيان. ويبدو أنه لم يكن يوجد أناس كثيرون في الشوارع اليوم، ولكن حين خرجت من السيارة، رأيت رجلاً يسوق تراكتوراً قاطرة أزرق نحوي. إنه ينفث الدخان في الجو الريفي النظيف. وأشرت له أن يهدئ سيره، فوقف إلى جانبي. شعره أفتح قليلاً من شعر معظم الصينيين، وأنفه، له جسر عال ملحوظ، في الوقت الذي لا يكاد يكون معقوفاً. ونظر إلي بثبات بزوج من عينين خضراوين غريبتين.

وما كنت أريد أن أقوله: «تحية.. أنت مواطن روماني».

ولكن ما أسأله فعلاً هو: «عفواً، ولكن هل أنت روماني، بالمناسبة؟»

واستغرق وقتاً طويلاً في رد فعله، ونظر إلي شزراً في وجه الشمس. وقال: «ماذا؟»

وأستمر: «أنت تعرف، الرومان، العيون الخضر وكل ذلك ؟»

ويقول وقد أدرك فجأة ما أسأله عنه: «أو، الرومان، محتمل».

وأسأل: «محتمل، ولكنك لست متأكداً؟»

«صحيح». ويتوقف، بابتسامة عريضة سخيفة قليلاً ويقول: «بعض الناس قالوا ذلك». وذلك كل ما كان لديه ليقوله في الموضوع.

وأوقف عدة أناس آخرين، وكل واحد منهم مساو لمن سبقهم في الضبابية عن جذورهم الرومانية المحتملة. والشيء الوحيد الروماني على نحو غامض بخصوص هذه القرية المغبرة هو رواق يائس أقامته الحكومة المحلية بأعمدة رومانية مزيفة تحتوي على لوحة حجرية، كتبت عليها بالحروف الصينية مختصراً لقصة «الفيلق الروماني المفقود في الصين».

صار من الواضح أن هذا كله جهد مفعم بالأمل نوعاً ما قام به أستاذ من أكسفورد وبضعة مسؤولين محليين طموحين للبرهان على وجود صلة بين إمبراطوريتين عظيمتين في الماضي. وأقرب صلات أستطيع أن أراها هي العيون الخضر لكثيرين من سكان ليشيان، ولكنَّ هناك الكثيرين من الطاجيك، والويغور، والفرس، والبشتون الذين يحملون عيوناً خضراً. ومن الواضح أن الصين تمتلك الكثير من الأساطير الريفية والأخرى الحضرية كذلك.

وأنا أتردد، متعجباً متسائلاً فيما إذا كان علي أن استثمر وقتاً أكبر مستكشفاً الأسطورة، وأنا قلق من أن رتلاً من جند الفيلق قد يمشون خارجين من خلف جدار مغبر في الدقيقة التي أغادر فيها. ولكنني في النهاية أقرر ألا أضيع المزيد من الوقت هنا. وأجذب ثوبي الروماني، وأقفز راجعاً إلى السيارة قاصداً يونغشانغ، وفيها أصعد على متن حافلة ركاب صغيرة متوجهاً إلى بلدة جانغيي.

ويسلك السائق الطريق 312 القديم لبعض الوقت، ثم يلتحق بالطريق الجديد. وفيما نحن نسرع على طول شارع سريع جيد على نفس المستوى مثل أي شارع في الولايات المتحدة أو في أوروبة، يظهر سور واق ترابي. ويبدو نوعاً ما قديماً بالياً، ولكنه يستمر ويستمر، ويسير موازياً للطريق. وفجأةً أدرك ما هو.

وأقول متعجباً مثل طفل للرجل الجالس إلى جانبي، وإصبعي مضغوط على النافذة: «الجدار العظيم!»

ويبتسم الرجل ويومئ.

obeikandi.com

إنه بون شاسع مخيب للأمل عن أقسام الجدار قرب بكين، وهي على ارتفاع أكثر من خمسين قدماً مصنوعة من الآجر الصلب والملاط. هناك تستطيع أن تسيرٍّ جيشاً، من الجنود أو السياح على طول القمة. أما هنا، فالسور ببساطة جدار من طين، يصل إلى عشرة أقدام أو عشرين قدماً ارتفاعاً. وأي قبيلة منغولية تائهة تجولت في هذا الطريق ما كانت لتجد أي مشكلة في القفز فوقه. ثم يظهر بعدئذ خط السكة الحديدية الرئيسي في غوبي خلفه، والخطوط الثلاثة تتسابق على طول بجوار أحدها للآخر، متجهة إلى الشمال الغربي.

والسبب لحالة الجدار العظيم من التدهور وعدم الإصلاح هنا كان توسيع حدود الصين. فحتى آخر أسرة من الصين (شينغ، التي حكمت من 1644 إلى 1912)، حدد الجدار الحدود الخارجية للإمبراطورية الصينية. ولكن حكام أسرة شينغ في القرن الثامن عشر قاموا بتوسيع أراضيهم ووضعوا قوات في مواقع عسكرية إلى الشمال وإلى الغرب من الجدار، وهكذا أبطلوه بصفته حداً أخيراً للدفاع.

توجد لافتة على جانب الطريق 312 تقول 2643 كيلومتراً. وتلك هي المسافة التي قطعتها من شنغهاي، وهي ألف وستمائة ميل تقريباً. وبعد اللافتة مباشرة، ينعطف الطريق 312 نحو الشمال قليلاً ويقطع مباشرة من خلال فجوة في الجدار العظيم، بحيث يسير الجدار الآن إلى الجنوب من الطريق. وتمتد الصحراء باستمرار من دون انقطاع. وهي ليست كثباناً رملية متحركة مثل نموذج الصحراء في شمال إفريقية التي نتخيلها عموماً بوصفها هي الصحراء ولكنها في غوبي تميل أكثر إلى أن تكون أرضاً صخرية للشجيرات والنباتات البرية القصيرة، مع وجود قرى صغيرة منتشرة في سلسلة على طول الطريق 312 القديم، وهو مازال يسير موازياً للخط السريع. بعض القرى كانت هناك طوال قرون. وبعضها يبدو وكأنه قد بني قبل مدة قليلة فقط.

وحتى هنا، في الامتدادات الخارجية القاحلة من الإمبراطورية الصينية، كانت الدعايات الحكومية موجودة في كل مكان.

ارفعوا عالياً راية العلوم. عارضوا العبادة.

تناول المخدرات يؤذيك في نفسك، وأسرتك، وبلادك.

البنات يستطعن أيضاً حمل اسم الأسرة.

اللافتة الموجودة على القنطرة فوق الممر، حين كانت الحافلة تدخل البلدة التالية، تقول جانغيي الذهبية. قد يكون في ذلك تجوز قليلاً، ولكن جانغيي على الرغم من موقعها المعزول في وسط صحراء غوبي، (وعدد سكانها 114.000 نسمة) لا تشعر وكأنها يجرى تركها في الخلف. إن فيها الشعور التقليدي الكلاسيكي لبلدة متوسطة الحجم في أي مكان في الصين. والمحال التجارية منتفخة بالسلع الاستهلاكية (على الرغم من أنها ليست حديثة وغالية مثل السلع الموجودة في المحال التجارية بعيداً إلى الشرق)، وهناك سيارات في الشوارع، ومجمعات وشقق جديدة تنشأ، والمطاعم مليئة. بل توجد ملصقات كبيرة في جميع أنحاء البلدة عن «براد بِيت» و«أنجيلينا جولي»، يلعبان البطولة في فيلمهما الذي أطلق حديثاً، وهو «مستر ومسز سميث». وباختصار، جانغيي سارَّة، ونشيطة، وإن تكن بلدة واحة، معزولة نوعاً ما وتقدم شهادة على النهضة الموجودة على طريق الحرير.

كتب ماركو بولو يقول إنه وقف في جانغيي (وسماها كان شو)، في وقت يقارب نهاية آخر أيام الذروة لطريق الحرير في القرن الثالث عشر، قبل أن تستبعده الطرق البحرية السريعة إلى الصين وتنزل به إلى غياهب الغموض. وقال إنه قضى عاماً كاملاً هنا، على الرغم من أني لا أملك أي فكرة عن الكيفية التي قضى بها الوقت. إنني أخطط لقضاء ليلة واحدة. ولكن كم كان مساءً رائعاً كما تبين.

وتنقلني دراجة نارية ريكشو من محطة الحافلات إلى ما يقول الكتاب الدليل إنه واحد من أفضل الفنادق في جانغيي. إنه مكان لطيف، فيه تهوية يسمى، خيالياً،بفندق جانغيي. وحين أسجل وصولي إلى الفندق، أسأل الكاتب، بلهجتي التي تظهر أقصى رعاية من الرجل الأبيض، إن كان يعرف ماذا أعني حين أقول إنني أحتاج إلى الإنترنت.

ويقول: «يوجد نطاق تردد واسع في كل غرفة، سيدي».

ألقي حقيبة ظهري وأتوجه خارجاً لأجد عشاء.

من المحتمل أن جانغيي تمتلك أكبر ميدان لبلدة رأيته خارج ميدان تيانانمين. وبالقرب منه، قد انتهت تقريباً الإنشاءات الخاصة بكنيسة كاثوليكية كبيرة. من هو الذي يدفع فعلاً من أجل هذا الصرح؟ وفي ظل الكنيسة، تقوم سيدة عجوز بحرق نقود ورقية على جانب الطريق، يراقبها من لابد أن يكون حفيدها. إن هذا اليوم على ما يفترض يوم خاص ما لتكريم الموتى.

وفيما أنا أراقبها، يأتي رجلان ويقفان إلى جانبها.

«أنتم لا تفعلون ذلك في أمريكتكم، أليس كذلك؟» قال لي ذلك واحد من الرجلين، وقد قام بالافتراض المعتاد عن جنسيتي وهو يشير إلى النقود الزائفة. وهي الآن تشتعل لهباً على جانب المشى.

وأجيب: «لا، نحن لا نفعل. وقبل هذا اليوم، لم يسبق لي أن رأيت كثيرين من الناس يفعلونها في صينكم».

ويقول الرجل الثاني مع ابتسامة: «أوه نعم، العادات القديمة تقاوم الموت بعناد».

كلاهما يظهر في حدود الثلاثين من العمر، وأفرطا في اللبس قليلاً بالنسبة إلى بلدة واحة في غوبي، في بدلة وربطة. ومن الواضح أنهما في طريقهما إلى مكان ما. أكبرهما سناً، وأجسرهما يقدم نفسه. «نحن ممثلان محليان لآن لي».

«آن لي ؟»

ويرفع حقيبته. وعليها الحروف الصينية آن لي، وتحتها، الاسم الإنجليزي للشركة، آمواي.

«آمواي؟ آمواي الأمريكية؟ بيع مباشر لآمواي ؟»

ويبتسم ويقول: «نعم. أنت تعرفها !»

«طبعاً، ولكنني لم أكن أتوقع أن أعثر على ممثلين لآمواي في وسط صحراء غوبي».

ويقول: «لنا مكتب هنا طوال ثلاث سنوات فقط. ولكنه يسير سيراً حسناً جداً من قبل الآن».

obeikandl.com

وأخبرهم أني لم أتناول عشائي بعد وأطلب منهما إن كانا يودان مصاحبتي. وبطريقة صينية حقيقية، يصران أن العشاء عليهما، ونتجه نحو بار المعكرونة الطويلة الذي يقدم نوعية محلية، وهو نوع من صحن المعكرونة الطويلة المقطعة، مع اللحم. لا يوجد طاولات فارغة، وهكذا نجلس إلى جانب واحد لطاولة مستديرة ضخمة في الوقت الذي تجلس فيه أسرة تأكل حول الطرف الآخر من الطاولة. وتصل معكرونتنا بسرعة، مع قطع كبيرة من اللحم المقطع على شكل شرحات رقيقة موضوعة على قمة الطبق.

ويخبرني أكبرهما عمراً أن اسمه هو رون واي وأنه صيني من الهان وأن عمره خمسة وثلاثون عاماً. له جبهة عريضة، وكتلة من الشعر الأسود الكثيف، ووجه طالب مدرسة شغوف بالدراسة. نشأ رون في شينكيانغ، أبعد إلى الشمال الغربي على طول الخط 312، وعمل طوال خمسة أعوام في مصنع في بلدته الوطن، وهي أبعد من جانغيي أيضاً، حيث كان أبوه قد عين هناك قبل أعوام. ولكن، مثله مثل كثيرين من الناس في البلدات الصغيرة في الصين، كان يمتلك طموحات أكبر. ويقول: «هناك، لم أكن أستطيع أن أحقق إمكاناتي».

وهكذا توجه شرقاً إل جانغيي، وفيها شرع في بيع أقراص فيديو رقمية (دي في دي) مزيفة مقابل يوان واحد لقرص الصور. واستمتع بحرية العمل لنفسه وجمع بعض النقود.

ثم ارتكب غلطته الأولى الكبيرة، كما يقول، واستثمركل مدخراته في أعمال سفريات، يبني خياماً دائرية ذات قباب أو خياماً عادية للسياح ليقيموا فيها خارج جانغيي. وانتهى المشروع بالإفلاس، وعاد إلى جانغيي ليبحث عن عمل. ويقول إنه عمل في أعمال تجارية كثيرة، ومن جملتها بعض الأسماء الكبيرة في صناعة مشروبات المرطبات مثل واهاها، وجيانليبوا، بل وسبرايت أيضاً، ولكن العمل، كما يقول، لم يكن مرضياً. بل إنه كان إذا كسب مالاً للشركة لم ينتفع هو من ذلك.

سمع عن آمواي من خلال صديق له وجاء مباشرة إلى واحد من اجتماعاتهم. وكان ذلك منذ تسعة شهور لا غير، وهو مرتبط بهم ارتباطاً كاملاً من قبل. وهو

تقريباً يهتز انفعالاً وهو يناقش مساره الوظيفي الجديد، من المال الذي يستطيع أن يكسبه، إلى الإمكانات التي يخلقها له. ويقول وهو يشرق بابتسامة عريضة: «سوف أعمل هذا طوال البقية الباقية من عمري، ولن أعمل أي شيء آخر، إنني أحب الحرية في هذا العمل تماماً».

ويسحب رخصته الحكومية للعمل ويخرجها ويمسكها للأعلى. ويقول هاتفاً مع ابتسامة تنفي ستين عاماً من الاقتصاد الخاضع للتخطيط بإيماءة واحدة: «هذا هو مكتبي. وهذا هو كل ما أحتاج إليه».

أما صديقه لي تسيجين، الذي يبلغ من العمر السادسة والعشرين فقط، فهو أنحف وأهدأ. فقد كان يعمل في مكتب لشركة سكة حديدية مملوكة للدولة. ويقول إنه كان يذهب إلى العمل، ويقرأ الجريدة، ويشرب الشاي، ويقوم، مثله مثل الكثيرين جداً من موظفي الشركات المملوكة للدولة، بأداء القليل جداً من العمل طوال اليوم. وهو أيضاً قد بدأ من مدة قليلة فقط، ولكنّ كلاهما يتحدث عن موجههما، وهو رجل يدعونه المعلم هيو، وهو الآن، بعد ثلاثة أعوام فقط، يكسب ما يعادل ألفين إلى ثلاثة آلاف دولار أمريكي في الشهر، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى هذا الجزء من الصين، (أو أي جزء منها).

ويقول رون، وهو يسحب من حقيبته كتاباً مصوراً (كتالوغاً) عن منتجات آمواي المتوافرة في الصين، «إنه يقضي إجازاته في كل مكان، ويمتلك بيتاً جديداً، وسيارة كبيرة، إنها مدهشة. طبعاً نحن لا نملك مثل هذا الاختيار من المنتجات كما هي في الولايات المتحدة». ويتابع القول: «ولكنها تنمو نمواً سريعاً، وجميع المنتجات مصنوعة في الصين، في مصنع في غوانغدونغ، وهكذا فهي مريحة جداً».

ويمد يده في جيبه ليستخرج بخاخاً مزيلاً لرائحة الأنفاس. ويقول: «نحن، الصينيين، نحب أن نأكل الثوم كاملاً، كما تعرف». وهو يقول ذلك، وكأن الأجانب قد لا يلاحظون هذا الحب لديهم للثوم. «الآن، تستطيع أن تشتري بخاخاً من آمواي مزيلاً لرائحة الأنفاس، وهو يزيل الرائحة تماماً».

obeikandl.com

يأخذ بخة صغيرة، ثم يعيد البخاخ إلى جيبه ويعود إلى تناول معكرنته الطويلة المحملة بالثوم.

سادت وقفة قصيرة ونحن جميعنا نميل إلى الأمام، ونضع أطراف طاساتنا على شفاهنا، ونحتسي الحساء الساخن المكون من طبق اللحم والمعكرونة الطويلة.

وأسأل رون: «ما هو حلمك إذاً؟»

ويقول: «حلمي أن أكون مثلكم فأنا أراكم دائماً أنتم، الغربيين الشباب، تحملون حقائبكم على ظهوركم. وأنتم شباب صغار جداً، ولكنكم مستقلون جداً، وليس لديكم اهتمام في العالم. إنكم فقط تسافرون مع حقائب ظهوركم في كل أنحاء الصين، وهذا ما أريد أن أفعله. أن أذهب بحقيبة ظهري في بلادكم، وفي كل مكان».

لي أكثر رزانة. وهو يقول إن حلمه هو أن يوصل منتجات آمواي لتخرج إلى كل العالم. «نحن نتحادث ويقول أحدنا للآخر، إن آمواي بدأت في الولايات المتحدة، وتطورت في اليابان، ونضجت في المدن الساحلية في الصين، ولكن ذروتها الحقيقية، ومجدها الحقيقي سوف يُرى في الصين الداخلية، في أماكن مثل جانغيي. هذا هو المكان الذي يوجد فيه السوق».

إنه يتحدث بتعابير تكاد تكون دينية، وأنا أدرك أن الحلم بأن تكون أنت الشخص الذي يفتح السوق الصينية، والذي يزيل روائح بليوني إبط ويعطر أنفاس بليون آكل ثوم، ليس محدوداً برجال الأعمال الغربيين. فرجال أعمال الصين يحلمون بذلك الحلم أيضاً.

ونضع ثلاثتنا طاساتنا على أفواهنا مرة أخرى ونحتسي الجرعة الأخيرة معاً. ويسألني رون إن كنت أريد أن أذهب إلى مكتبهم، الذي يقع بالقرب منا كما يقول. وهم، حسب ما يقول، يعقدون اجتماعاً. ولا يرفض أحد قط دعوة في الصين، ولذلك أوافق. وهو يصر على دفع الفاتورة ونحن نتجه إلى الباب.

وأسأله: «بالمناسبة، ما اللحم الذي كان مع المعكرونة؟»

ويقول: «كان ذلك لحم حمار».

ونحن نمشي إلى مكتب آمواي مارِّين بالمزيد من الملصقات عن براد بيت في دور السيد سميث. والمكتب مسيرة صاعدة إلى الطابق الثالث، وقريباً على الجانب الآخر من ركن الشارع تماماً. وكان هناك من قبل في المكتب ستة ممثلين آخرين لآمواي، ثلاثة رجال وثلاث نساء، وجميعهم على نفس درجة الشغف مثل رون واي. والرجال جميعهم يرتدون لباساً موحداً من القميص الأنيق وربطة العنق، والبناطيل السوداء. والنساء أيضاً، وإن لم يكنَّ في لباس موحد، يرتدين كلهن قمصاناً وبناطيل متشابهة عادية. ويبدو أن النساء الصينيات نادراً ما يلبسن تنانير. والمعلم هيو، وهو الرجل الذي يبدو أنه كان مسؤولاً عن إحضار آمواي إلى جانغيي، كان موجوداً كذلك. وجميعهم يصافحونني ويهزون يدي، ويرحبون بي، ويعرضون علي مقعداً للجلوس فيما تبين أنه اجتماع لتشجيع باعة جدد على الالتحاق بهم. وكل بائع منهم أحضر معه صديقاً واحداً على الأقل، ونحن نجلس في مكتب واسع على الكراسي التي وضعت في ترتيب يجعلها معه تواجه طاولة المتحدث في مقدمة الجلسة.

ثم تحول المساء إلى مساء غير عادي نوعاً ما. ويقف الممثلون تباعاً أحدهم بعد الآخر، ويقدمون أنفسهم، ويذكرون ما كانوا يفعلونه وأنهم حين وجدوا آمواي فقط اكتشفوا هدفهم الحقيقي في الحياة، فهم الآن يحملون إلى بيوتهم ألف دولار في الشهر.

وحين تكلمت أول امرأة كان الحضور يصيحون «نعم! نعم!» مثلما يرفع المصلون أصواتهم بكلمة «آمين».

ثم يقف رون واي ليتحدث، وبأسلوبه الجاد، يشكر المعلم هيو أولاً وقبل كل شيء ويشكر كل واحد من الآخرين على مجيئهم، وبعدئذٍ، وقبل البدء بخطابه، يستدير نحوي ويشكر السيد سميث. وأقوم أنا بتلك الحركات السينمائية من رد الفعل المتأخر والتفِت حولي لأرى إن كان يوجد خلفي أجنبي غيري كان يدعى السيد سميث. ولكن يتضح في الحال أنني أنا السيد سميث. ومن تلك اللحظة فصاعداً، يشكر كل متحدث يقف ليخاطب الحضور المعلم هيو، ويشكر كل شخص آخر، ثم يومئ نحوي ويشكرني، يشكر السيد سميث، صديقنا الأجنبي، على المجيء. ربما كانوا يظنون أن كل الأجانب يسمون السيد سميث. أو ربما، هنا في صحراء غوبي أيضاً، يخلط الناس بيني وبين براد بيت.

ويقول رون وهو يصل إلى الحد الأعلى من كفاءته الخطابية، ويبدو أنه يعني كل كلمة يقولها، «إن أحفادي سوف يتذكرون اسمي، لأنني سأغير حظوظ أسرتنا. وأنا عازم على ألاّ أجمع المال لنفسي فقط، ولكنني حين أكون أكثر نجاحاً مع آمواي، فأنا عازم على أن أرجع العطاء إلى المجتمع. ربما سوف أنشئ مدرسة للأطفال المحرومين. لأن علينا جميعاً أن نعطي المال ونضعه في المجتمع، صحيح؟»

ويقول جمهور الحضور: «نعم! نعم! آمين!»

وأخيراً، ينهض المعلم هيو، في الوقت الذي يبدأ فيه رون واي نمطاً للتصفيق (مع الأعداد) وكأنه كان في لعبة كرة القاعدة (البيسبول). «واحد، اثنان... واحد، اثنان، ثلاثة... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... تصفيق تصفيق».

ويهدر صوت المعلم هيو: «أنتم لا تستطيعون أن تختاروا المكان الذي قد ولدتم فيه، ولكنكم تستطيعون أن تختاروا مستقبلكم». أمام دمدمة من الحضور «نعم، نعم، نعم».

ويقول: «لا تقبلوا بمستوى «تقريباً». هذا ليس جيداً بما يكفي بالنسبة إليكم».

وهكذا يجلس ما يقارب عشرين شخصاً صينياً في مبنى مكاتب بال في بلدة صغيرة في صحراء غوبي ويستمعون إلى شرح معلم سابق متوسط العمر للحلم الصيني.

«أنتم أيضاً تستطيعون أن تفعلوها. أنتم أيضاً تستطيعون أن تنجحوا. أنتم أيضاً تستطيعون أن تكونوا مخولين. أنتم أيضاً تستطيعون أن تمتلكوا السيارة، والشقة، والاحترام».

الحضور يستمعون، ويتذكرون، وسوف ينهضون في الصباح التالي ويخرجون إلى العمل لكي يحققوا ما سمعوه. وبالنسبة إلى أولئك الذين يغتنمون الفرصة، هذا جزء من التحول الزلزالي الذي يجري. الإمكانية الآن موجودة لتحلم بالأحلام التي يمكن فعلياً أن تتحقق. إنها تبدأ بتغيير الصين، شخص واحد في كل مرة، ويخلق أمة جديدة. أمة من أفراد يتمكنون ببطء.

في النهاية، يحيي كل واحد كل واحد من الآخرين. ويشكر المعلم هيو الجماعة على مجيئهم ويقول إننا الآن سوف ننقسم إلى مجموعات وكل مجموعة من خمسة، ويقدمون أنفسهم، ويناقشون الاجتماع. ويقول: «آن الوقت للتشارك».

إن ألفين وخمسمائة عام من الكونفوشيوسية وستين عاماً من حكم الحزب الشيوعي تعني أن الشعب الصيني غير معتاد على «التشارك» في الطريقة التي تبدو عادية في سياق أمريكي. فالصينيون في هذا الملمح أكثر شبهاً بالبريطانيين، إن لم يكون أسوأ منهم نوعاً ما، وهم على وجه العموم يترددون في الانفتاح عن عواطفهم تماماً.

وذلك قد يكون هو السبب في أن كثيرين جداً من البريطانيين يقيمون مدة طويلة جداً في الصين. إنهم سعداء فعلاً في أن يجدوا مجموعة أخرى من الناس تعاني مثلهم من الاختلال الوظيفي من الناحية العاطفية.

أربع مجموعات صغيرة في كل منها خمسة أشخاص (زائداً السيد سميث المتشكك نوعاً ما) يتراجعون إلى أركان مختلفة من الغرفة، يحتشدون معاً، ويتشاركون.

وتقول امرأة ذات شعر طويل أسود وتضع نظارات واسعة تقول: إن هذه أول مرة لها هنا، وإنها مهتمة جداً. وامرأة أخرى تبدو عصبية وخجولة جداً فلا تستطيع أن تقول الكثير. وأحد الرجال يذكر أنه يرى بوضوح أكبر الآن نقاط ضعفه الخاصة، ويعترف بحوار ذاتي (مونولوج) غير صيني جداً أنه يحتاج إلى العون للتواصل وأن يمسك بالحياة بنفسه. وأنا بدوري ألقيت بضع كلمات عما أفعل وقلت: إنني آمل أن لا تمانعوا إن أنا كتبت عنكم في كتابي. وبدوا متأثرين من إمكانية ذلك، وشكرت الجميع على كرمهم وضيافتهم.

وحين ينتهي الاجتماع يرافقني رون واي ولي تسيجين إلى أسفل الدرج إلى الباب الأمامي. وأقول لهما: «لا حاجة إلى وداعي في الخارج»، ولكنهما، وبطريقة صينية حقيقية، مؤدبة أدباً فائقاً، يصران على ذلك.

وأخبرتهما: «إن ما تفعلونه مثير للدهشة». لقد امتصصت الجدية التي سادت ذلك المساء. وأنا أعني ذلك بشكل كامل.

obeikandl.com

ويقول لي، وهو يأخذني من ذراعي بشدة قوية قليلاً ونحن نهبط الدرجات المرجعة للصدى: «أنت ترى، نحن نريد أن نعيش. نحن الآن حقاً نكاد نبقى على قيد الحياة. نحن نريد أن نعيش! أتعرف ذلك؟ نحن نريد فعلاً أن نعيش!»

هذه الكلمات مكثت معي، مثلما لم تمكث تقريباً أي كلمات أخرى في كل رحلتي عبر الصين. لا تكاد توجد خلاصة أفضل لكل شيء تدور حوله هذه الثورة الصينية المجنونة في القرن الحادي والعشرين.

أبتسم ونحن نتصافح ونهز أيدينا: «حسناً، سأراكما في نيويورك، أو باريس، أو لندن!» ويبادلانني الابتسام، ونفترق عند المدخل الرئيسي للمبنى. وأتجول راجعاً إلى فندقي في هواء المساء الحار، سائلاً نفسي لماذا أنا أغادر هذه البلاد الرائعة وأتأمل في الحلم الصيني، وفي الحلم الأمريكي، وأعجب إن كان أحدهما يتسلم القياد من الآخر؟

openkandil.com